الإصلاح السياسي

هدف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يعقوب محمد اسحاق

الإصلاح السياسي

هدف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى
٢٠٠٦م - ١٤٢٦هـ

الدار العربية للموسوعات
الحازمية - ص.ب: ٥١١ - هاتف: ٠٠٩٦١٥/٩٥٢٥٩٤ - فاكس: ٠٠٩٦١٥/٤٥٩٩٨٢
هاتف نقال: ٠٠٩٦١٣/٣٨٨٣٦٣ - ٠٠٩٦١٣/٥٢٥٠٦٦ - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com
البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام خالد العاني

نقطة الانطلاق

الحسبة، والموعظة، والنصيحة، والوصية، والنقد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أسماء متعددة لشيء واحد، لم يكتشف المسلمون حتى اليوم كنوزه الثمينة، وأبعاده الحقيقية، وأهدافه السامية، ولم يستقرّوا على فهمه فهماً مناسباً. .

فمنذ ظهور رسالة الإسلام التي جاء بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى الوقت الحاضر يتجاذب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدة جهات، من أهمها جهتان هما:

* **الجهة الأولى**: السلطة السياسية في بعض الدول الإسلامية مثل حكومة طالبان التي تستخدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لبسط سيطرتها على الشعب باسم الدين، ثم لاستخدامه واجهة لخداع شعبها لتقول له بطريقة غير مباشرة إنها تحكمه على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

* **الجهة الثانية**: الشعوب الإسلامية التي يمكن تقسيمها إلى فئتين:

الفئة الأولى: العامة التي انطلت عليها الحيلة وشربت المقلب إلى حد الإيمان بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكله السائد حاليًّا هو الشكل الصحيح لهذه الفريضة الدينية.

الفئة الثانية: الخاصة التي تدرك بأن تطبيقات فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطريقة التي تقوم بها بعض الحكومات الإسلامية ليست هي التطبيق الأولى بالتنفيذ، على أساس أن تلك الحكومات الإسلامية اختطفت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخرجته للأمم الإسلامية بالشكل المناسب لتحقيق مصلحتها في حكم الشعوب الإسلامية والسيطرة عليها وإذلالها باسم الدين لكي لا يستعصي على إدارتها أحد.

فأيهما أولى بالإنكار والاعتراض عليه؟

المنكرات الفردية التي يرتكبها الأشخاص وتضرّ مقترفيها وحدهم، أم المنكرات السياسية التي يقوم بها الحكام بكل جرأة وتحدٍّ دون حسيب أو رقيب، وتلحق الضرر بالبلدان والشعوب؟

من أجل تنوير الشعوب الإسلامية التي خدعتها حكوماتهم مثل حكومة طالبان التي تستعمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للسيطرة والإذلال، وليس لوجه الله تعالى. أحاول في هذا البحث أن أصحّح مسار هذه الفريضة الدينية وأخلصها من سوء استغلال كثير من

الحكومات المتأسلمة لها.

فأقول بأن أنبل أهداف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الإصلاح السياسي، وهو حكم الشعوب للشعوب بنفسها عن طريق الحسبة عن طريق الأمر بالمعروف الذي أضحى معروفاً في العالم كله ألا وهو الديموقراطية، فعن طريقها يمكن محاربة الفساد السائد في بعض الدول الإسلامية، وهو الأمر الذي تحاول بعض الحكومات الإسلامية توجيهه لمصلحتها لبسط سيطرتها باستخدام الحسبة بشكل بوليسي في محاولات مستمرّة للاستمرار في الحصول على امتيازاتها التي تثير اللعاب، والاحتفاظ بها حتى لو أدى ذلك الى قطع بعض الرقاب أو تقييد حرية الشعوب باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن الشكل الصحيح المفروض لهذه الفريضة الدينية أن تتحول إلى وسيلة دينية سياسية لضبط عجلة القيادة، وبذلك تصبح الحسبة حزباً سياسياً باسم: «حزب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لكي تقوم الشعوب بدورها في الرقابة والتوجيه والتخطيط.

جدة في ٢٠/٧/١٤٢٦هـ
٢٥/٨/٢٠٠٥م

يعقوب محمد اسحاق
babayaqoob@yahoo.com
فاكس: ٠٠٩٦٦-٢-٦٩٣٣٩٩٠
ص. ب: ٨٨٥٥ - جدة: ٢٣٤١٢

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
في القرآن الكريم

لكل دين من الأديان السماوية كتابه المقدس، ولكل رسول من الرسل قصة عن استلام كتابه المقدس من السماء عن طريق جبريل عليه السلام.

والقرآن الكريم هو الوحي الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب المسلمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، وهو الكتاب الذي نزل من أجل هداية البشرية، ووضع لها منهاج حياتها السليم، ورسم لها الخطوط العريضة اللازمة لعلاقة البشر بعضهم ببعض، وقرر المبادئ الأساسية للعلاقة بين الحاكم والمحكوم.

ولعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أَجَلِّ الفرائض التي شرعها الله عز وجل من أجل سعادة الإنسان، ولعلَّه من أهم الحقوق التي منحها الله للإنسان لتقويم أي اعوجاج أو انحراف في حياته الشخصية أو في الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية لبلاده.

وقبل الاجتهاد في الحديث عن أهداف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحسن أن نبدأ بالكلام

العذب كلام الله عز وجل بقراءة الآيات التي تدور حول هذا الأمر الإسلامي الجليل:

قال الله سبحانه وتعالى:

* في الآية: ٤١ من سورة الحج: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾..

* في الآية: ١١٠ من سور آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾..

* في الآية: ١١٠ من سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ * تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ * وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ * وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم * مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾..

* في الآية: ١١٤ من سورة آل عمران: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ * وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ * وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ * وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾..

* في الآية: ١٧ من سورة التوبة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾..

* في الآية: ٩٧ من سورة المائدة: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن
مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ . .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحديث النبوي الشريف

اختار الله سبحانه وتعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لكي يحمل رسالة الاسلام للبشرية في هذا الكون، ولا غرابة أبداً في أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو المسؤول في هذه الدنيا عن بيان المعاني الربانية التي جاءت في القرآن الكريم عن طريق أحاديثه الشريفة وأعماله الهادية للإيمان بالله والحياة الآخرة، والمؤدية إلى حياة سعيدة على الأرض.

إن السنة النبوية كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي هي الوحي الثاني، أو الوحي غير المتلو الذي هو البيان النبوي للقرآن لكريم، وهي المصدر الثاني لتشريع الأحكام وتوجيه السلوك لدى المسلمين.

لذلك لا بد من استعراض أهم الأحاديث النبوية الشريفة التي تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواردة في كتب الحديث المعروفة عند المسلمين:

* **«أفضل شهداء أمتي: رجل قام الى إمام جائر، فأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر، فقتله على ذلك، فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر»** رواه الحسن البصري.

* «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد.

* «أيها الناس: إن الله عزَّ وجلَّ يقول لكم: مُروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم» رواه أحمد والبزاز.

* «إن الله يسأل العبد: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره، فاذا لَقَّنَ الله العبد حجته قال: ربِّ، وثقتُ بك، وفَرَقْتُ من الناس» رواه ابن ماجة.

* «إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا: ما لنا بُدٌّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلاّ ذلك، فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حقٌّ الطريق؟ قال: غَضُّ البصر، وكَفُّ الأذى، وَرَدُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» رواه أبو سعيد.

* «عذب الله قرية، فيها ثمانية عشر ألفاً، عملهم عمل الأنبياء، قالوا: يا رسول الله: كيف؟ قال: لم يكونوا يغضبون لله، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر» روته عائشة.

* «بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط، وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر» رواه عمر بن الخطاب.

* «**إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشكوا أن يعمَّهم الله بعقاب**» رواه الترمذي.

* «**إذا رأيت أمتي تهاب الظالم، بأن تقول له: إنك ظالم، فقد تُودِّعَ منهم**» رواه عبدالله بن عمرو.

* «**لا تَقِفَنَّ عند رجل يقتل مظلوماً، فإنَّ اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه، ولا تَقِفَنَّ عند رجل يضرب مظلوماً، فإنَّ اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه**» رواه الترمذي وابن ماجة.

* «**من حضر معصية فكرهها، فكأنه غاب عنها، ومن غاب عنها فأحبها، فكأنه حضرها**» رواه أبو هريرة.

* «**قيل يارسول الله: أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: نعم، قيل: بمَ يارسولَ الله؟ قال: بتهاونهم وسكوتهم على معاصي الله**» رواه ابن عباس.

* «**أفضل الجهاد كلمة حقّ عند إمام جائر**» رواه البخاري.

فهم السلف
للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

خير ما يعبر عن فهم السلف للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهرس موضوعات كتاب: «الرتبة في طلب الحسبة» الذي ألفه الإمام علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي ٣٦٤ - ٤٥٠»:

أولاً : التعريف بالمؤلف

ثانياً : الحسبة ونشأتها وتطورها وكتابة الفقهاء فيها

ثالثاً : الحسبة والمحتسب عند الماوردي

رابعاً: منهج التحقيق في كتاب الرتبة في طلب الحسبة

مخطوطة الكتاب

الباب الأول: في شرائط الحسبة وصفة المحتسب.

الباب الثاني: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الباب الثالث: في الحسبة على الخمر والآلة المحرمة.

الباب الرابع: في الحسبة على أهل الذمة.

الباب الخامس: في الحسبة على أهل الجنائز.

الباب السادس: في الحسبة في المعاملات المنكرة.

الباب السابع: في الحسبة فيما يحرم على الرجال استعماله وما لا يحرم.

الباب الثامن: في الحسبة على منكرات الأسواق.

الباب التاسع: في معرفة القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم.

الباب العاشر: في معرفة الموازين والمكاييل والأذرع.

الباب الحادي عشر: في الحسبة على العلافين والطحانين.

الباب الثاني عشر: في الحسبة على الفرانين والخبازين

الباب الثالث عشر: في الحسبة على بيّاعي الشوي

الباب الرابع عشر: في الحسبة على النقانقيين.

الباب الخامس عشر: في الحسبة على الكبوديين والبوارديين.

الباب السادس عشر: في الحسبة على الجزّارين.

الباب السابع عشر: في الحسبة على الروّاسين.

الباب الثامن عشر: في الحسبة على الطبّاخين.

الباب التاسع عشر: في الحسبة على الشرايحيين.

الباب العشرون: في الحسبة على الهرايسين.

الباب الحادي والعشرون: في الحسبة على قلايي السمك.

الباب الثاني والعشرون: في الحسبة على قلايي الزلابية.

الباب الثالث والعشرون: في الحسبة على الحلاويين.

الباب الرابع والعشرون: في الحسبة على الشرابيين.

الباب الخامس والعشرون: في الحسبة على العطارين والشماعين.

الباب السادس والعشرون: في الحسبة على البياعين.

الباب السابع والعشرون: في الحسبة على اللبانين.

الباب الثامن والعشرون: في الحسبة على البزازين.

الباب التاسع والعشرون: في الحسبة على الدلالين.

الباب الثلاثون: في الحسبة على الحاكة.

الباب الحادي والثلاثون: في الحسبة على الخياطين والرفايين والقصارين وصناع القلانس.

الباب الثاني والثلاثون: في الحسبة على الحريريين.

الباب الثالث والثلاثون: في الحسبة على الصباغين.

الباب الرابع والثلاثون: في الحسبة على القطانين.

الباب الخامس والثلاثون: في الحسبة على الكتانيين.

الباب السادس والثلاثون: في الحسبة على الصيارف.

الباب السابع والثلاثون: في الحسبة على الصاغة.

الباب الثامن والثلاثون: في الحسبة على النحاسين والحدادين.

الباب التاسع والثلاثون: في الحسبة على الأسكافة.

الباب الأربعون: في الحسبة على البياطرة.

الباب الحادي والأربعون: في الحسبة على سماسرة العبيد والجواري.

الباب الثاني والأربعون: في الحسبة على الحمامات.

الباب الثالث والأربعون: في الحسبة على السدارين.

الباب الرابع والأربعون: في الحسبة على الفصّادين والحجّامين.

الباب الخامس والأربعون: في الحسبة على الأطباء والكحّالين.

الباب السادس والأربعون: في الحسبة على مؤدبي الصبيان

الباب السابع والأربعون: في الحسبة على القومة والمؤذنين.

الباب الثامن والأربعون: في الحسبة على الوعّاظ.

الباب التاسع والأربعون: في الحسبة على المنجمين وكتاب الرسائل.

الباب الخمسون: في الحسبة على الحدود والتعزيرات.

الباب الحادي والخمسون: على القضاة الشهود.

الباب الثاني والخمسون: على الأمراء والولاة.

الباب الثالث والخمسون: فيما يلزم المحتسب فعله.

الباب الرابع والخمسون: في الحسبة على السفن والمراكب.

الباب الخامس والخمسون: في الحسبة على باعة القدور والخزف والكيزان.

الباب السادس والخمسون: في الحسبة على الفاخرانيين والغضارين.

* * *

ولعل من المفيد أن نتصفح بعض أبواب هذا الكتاب النادر لمعرفة مسارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أسلافنا الكرام.

في الحسبة على العطارين والشماعين

* اعلم أن هذا الباب من أهم الأشياء التي ينبغي للمحتسب الاعتناء بها والكشف عنها، ويجب على المحتسب أن لايمكن أحداً من بيع العقاقير إلا من له معرفة وخبرة وتجربة، ومع ذلك يكون ثقة أميناً في دينه عنده خوف من الله تعالى، فإن العقاقير إنما تشترى من العطارين مفردة، ثم تركَّب غالباً، وقد يشتري الجاهل عقاراً من العقاقير معتمداً على أنه هو ثم يبتاعه منه جاهل آخر، فيستعمله في الدواء متيقناً بمنفعته، فيحصل له عكس مطلوبه، ويتضرر به، وهي أضر على الناس من غيرها، لأن العقاقير مختلفة الطبائع، والأدوية على قدر أمزجتها، فإذا أضيف إليها غيرها أحرفها فحينئذ يعتبر المحتسب على العطارين ما يغشون به العقاقير، فإن منهم من يغش الطباشير بالعظم المحروق، ومعرفة غشه: إذا طرح في الماء رسخت العظام وطفت الطباشير، وقيل: إنه أصل القنى المحروق، ويقال إنها تحترق من احتكاك أطرافها عند عصوف الرياح، فيخرج عقيبها الطباشير، وأجوده الخفيف الوزن، الأبيض السريع المفرك، والسحق وهو بارد في الدرجة الثالثة فيه قبض ويسير تحليل.

* ويغشون اللبان الذكر بالصمغ والقلفونية، ومعرفة غشه أنه إذا طرح في النار منه شيء التهبت القلفونية ودخنت وفاحت رائحتها.

* ويغشون التمر هندي بالصمغ والخل، ويقولون: هذا عجين البلاد، ويظهر غشه إذا عفن، وأما عجين البلاد لم يكن فيه عفن ولا غيره والفلفل هو أعلاه، ومنه نوع شكله شكل الباذنجان وفي تجويفه تمر هندي بياضه كبياض القطن، مجتمع الأجزاء، وله ليف كالإبريسم، وله حب صغير وتستعمله ملوك الهند، في بلادهم لخاصية أنفسهم.

* ويغشون القسط الحلو بأصول الراشن، ومعرفة غشه أن القسط له رائحة، وإذا وضع على اللسان له طعم، والراشن بخلاف ذلك.

* ويغشون زغب السنبل بزغب القلقاس، ومعرفة غشه إذا طرح في الفم يغثي ويحرق.

* ومنهم من يغش قشور اللبان بقشور شجر الصنوبر، ومعرفة غشه أن يلقى في النار فإذا التهب وفاح له رائحة فهو خالص، وإن كان بالضد فهو مغشوش.

* ومنهم من يغش الزعفران الشعر بلحم الدجاج، أو لحم البقر بعد سلقه بالماء ثم ينشره ويجففه ثم يخلط فيه، وعلامة غشه أن يأخذ منه شيئاً وينقعه في الخل، فإن تقلص فهو مغشوش باللحم، وإن لم يتقلص فهو خالص.

* ويغشون المطحون بأبي مليح أو الجريس،

وإظهار غشه أن يذوب منه شيء ويترك من خرقة، فإن بقي منه شيء لا ينزل فهو مغشوش، وإذا صبغ منه شيء كان صبغه مائلاً إلى الخضرة ورائحته ضعيفة، وأيضاً يؤخذ منه شيء ويذوب في الماء، فإن رسب فهو مغشوش، وأجود الزعفران: الطري، الحسن اللون، الشديد الحمرة الذكي الرائحة.

* ومنهم من يغش المسك بالراوند التركي أو دم الأخوين ورامك القاطر يعمل في نافشه، ومعرفة غشه إذا سحق في ماورد، فإن الماورد يحمر، والراوند يطفو على وجه الماورد لأنه خشب.

* والمسك الطاهر إذا سحق قويت رائحته ورسخ، ومنهم من يغشه بأن يعمل نافجة المسك من قشور الأملج والشيطرج الهندي وعليها شادوران ويعجنوه بماء صمغ الصنوبر، على رأس تنور، ومعرفة غشها وسائر غشوش النوافج: أن يفتحها ويلثمها كالمحتسي للشيء، فإن طلع إلى فيك المسك حده كالنار فهو فحل لا غش فيه، وإن كان بالضد فهو مغشوش، ومعرفة غش أنواع المسك: أن تضع شيئاً في فمك ثم تنفله على قميص أبيض، ثم تنفضه فإن انتفض ولم يصبغ فلا غش فيه من دم ولا غيره، وإن صبغ ولم ينفض فهو مغشوش، ومنهم من يسحقه بدم الغزال ثم يحبسه في مصرانها، ومنهم من يغشه بالخبز، ومنهم من يغشه بالكبود المحرقة.

* ومنهم من يغش الماورد الدمشقي وصفة غشه:

يعمل في عشرة أرطال ماء يسير من شحم الحنظل وشب، حتى يعطي عفوصه بمرارة ويظهر غشه بالذوق.

* وغش العنبر المعجون: إذا أضيف إليه الصمغ تحمى مسلة وتشك في خرزه، فإن سال منها شيء على المسلة فهو شمع، فإن كسرت الخرزة وبان فيها عشب أخضر فهو عنبر.

* ومنهم من يغش الزبدة بالظفر المحلول فإن أعطت جماداً فهي من الظفر، وإن أعطت نعومة في اليد وريحاً قوياً فهي زبدة.

* ومنهم من يغش العود الهندي، فيأخذ الصندل ويبرده حتى يصير مثل العود وينقعه في مطبوخ الكرم العتيق، ثم يروحه ويخلطه بالعود الهندي، ومعرفة غشه: أن يلقي منه شيء في النار، فإن رائحة الصندل لا تخفى، ومنهم من يعمله من قشور خشب يقال له الأبليق فينقعه في الماء الورد المدبر بالمسك والكافور أياماً، ثم يخرجه ويغليه ويروحه، ومنهم من يعمل هذه الصفة من خشب الزيتون، ومعرفة غشه أن يلقى منها شيء في النار فإن رائحة الزيتون لا تخفى.

في الحسبة على البياطرة

* اعلم أن البيطرة علم جليل سطرته الفلاسفة في كتبهم ووضعوا منه تصنيفاً، وهي أصعب علاجاً من أمراض الآدميين، لأن الدواب ليس لها لسان تنطق به وتخبر بما تجده من الآلام، وإنما يستدل على عللها بالحس والنظر، فيحتاج البيطار إلى حسن بصيرة بعلل الدواب وعلاجها، فلا يتعاطى البيطرة إلا من له معرفة وخبرة بالتهجم على الدواب بفصد أو قطع أو كي وما شابه ذلك، «ومن قدم على ذلك» بغير خبرة فيؤدي إلى الهلاك للدابة وعطبها، فيلزمه أرش ما نقص من قيمتها، من طريق الشرع وعزره المحتسب.

* * *

فصل:

* وينبغي للبيطار أن يعتبر حافر الدابة قبل تقليمه، فإن كان أحنف، أو مائلاً نسف من الجانب الآخر قدراً يحصل به الاعتدال، فإن كانت يد الدابة قائمة جعل المسامير المؤخرة صغاراً، والمقدمة كباراً، وإن كانت يدها بالضدّ من ذلك، صغَّر المقدمة وكبّرالمؤخرة، ولا

يبالغ في نسف الحافر، ولا يرخي المسامير فيتحرك النعل ويدخل تحته الحصى والرمل، ولا يشد على الحافر بقوة فيزمن الدابة.

* واعلم أن النعال المطرقة ألزم للحافر وأثبت، والمسامير اللينة ألزم من المسامير الصلبة، والمسامير الرفيعة خير من المسامير الغليظة.

* وإذا احتاجت الدابة إلى تسريع أو فتح عرق، أخذ المبضع بين أصبعيه ويجعل نصابه في راحته، وأخرج من رأسه مقدار نصف ظفر ثم يفتح العرق تعليقاً إلى فوق بخفة ورفق، ولا يضر العرق حتى يجسه بأصبعه سيما عروق الأوداج فإنها خطرة لمجاورتها للمريء، فإن أراد شيئاً من عروق الأوداج خنق الدابة خنقاً جيداً، فيتمكن مما أراد.

* * *

فصل:

* وينبغي للبيطار أن يكون خبيراً بعلل الدواب ومعرفة ما يحدث فيها، ويرجع الناس إليه إذا اختلفوا في الدابة. وقد ذكر الحكماء في كتاب البيطرة أن علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة، ونذكر منها ما اشتهر من ذلك وهو: الخناق الرطب، والخناق اليابس، والجنون، وفساد الدماغ «الصداع، والحمر والحنفة، والورم والمرة الهائجة»، والذئبة، والخشام، ووجع الكبد، ووجع القلب، والدود في البطن والمغل، والمغص، وريح

السوس، والقضاع، والصدام، والسعال البارد، والسعال الحار، وانفجار الدم في الدبر والذكر، والحك والحلق، وعصار البول، ووجع المفاصل والرهصة، والرحس والداحس والنملة، والنكب، والخلدة، واللقوة، والماء الحار في العين، ورخاوة الأذنين والضرس، وغير ذلك مما يطول شرحه.

* فيفتقر البيطار إلى تحصيل معرفة علاجه، وسبب حدوث هذه العلل منها ما إذا حدث في الدابة صار عيباً دائماً، ومنها ما لا يصير عيباً دائماً، ولولا التطويل لشرحت من ذلك جملة كثيرة. فينبغي للمحتسب ألا يهمل امتحان البيطار بما ذكرناه ومراعاة فعله والله أعلم.

في الحسبة على سماسرة العبيد والجواري وسماسرة الدواب والدور

ينبغي أن لا يتصرف في سمسرة العبيد والجواري إلا من ثبتت أمانته عند المحتسب وعفته وصيانته، مشهور العدالة، لأنه يتسلم جواري الناس وغلمانهم، وربما اختلى بهم في منزله، وينبغي أن لا يبيع لأحد جارية ولا عبداً حتى يعرف البائع، أو يأتي بمن يعرفه، ويكتب اسمه وصفته في دفتره، لئلا يكون المبيع حراً أو مسروقاً، ويتفقد عهد المماليك المتقدمة في أيدي مواليهم ليعلم منها ما قد شرط على المشتري من ذلك بينهما ما قد شرط، ولا يخفون عيباً علموه، ومن أراد شراء جارية جاز له أن ينظر إلى وجهها وكفيها، فإن طلب استعراضها في منزله والخلوة بها فلا يمكنه من ذلك إلا أن يكون عنده في منزله نساء فينظرن في جميع بدنها، وإن أراد شراء غلام ينظر إلى ما فوق السرة ودون الركبة، هذا كله قبل العقد، وأما بعده فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية، ولا يجوز أن يفرق بين الجارية وبين ولدها، كما سبق، ولا يجوز بيع الجارية ولا المملوك إذا كانا مسلمين لأحد من أهل الذمة كما سبق، إلا أن يتيقن أن المملوك ليس بمسلم.

* * *

فصل:

* وينبغي أن يكون بصيراً بالعيوب، خبيراً بابتداء العلل والأمراض، فإذا أراد «بيع» غلام نظر إلى جميع جسده سوى عورته، قبل بيعه ويعتبر ذلك لئلا يكون فيه عيب، أو علة فيخبر بها المشتري.

* * *

فصل:

* ويؤخذ على سماسرة الدواب أن لايبيع دابة حتى يعرف البائع أو يأتي بمن يعرفه ويكتب اسمه في دفتره، لئلا تكون معيبة أو مسروقة، كما قلنا، ويعتبر عيبها للمشتري وسنها وطرفها، ولا ينادى عليها إلا من فم التاجر، ويراقب الله تعالى في أمر الحيوان فلا يعذبه.

تعليق:

لقد شملت أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيراً من مظاهر الفساد السائد في الماضي في العالم الإسلامي، وتم توزيعها في الوقت الحاضر على بعض الأجهزة مثل: البلديات. وزارات التجارة. وزارات الصحة. أجهزة حماية المستهلكين. وغيرها.

أما أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن ارتكاب المنكرات فكان معطلاً بفعل الاستبداد الذي كان مسيطراً على العالم الإسلامي من أجل تعزيز قوة السلطان وبقائه في

كرسي الحكم أطول مدة ممكنة، وأدى استبداد الحكام إلى خوف العلماء على حياتهم منهم والابتعاد عن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
في هذا العصر

بلغ عدد المسلمين في القرن الحادي والعشرين في العالم حوالي ١,٢ مليار مسلم، وبلغ عدد الدول الإسلامية ٤٤ دولة.. وعدد الدول الاسلامية التي تطبق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وتطلق على الأجهزة التي تقوم بهذا العمل أسماء مختلفة من أشهرها: هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **وكان من أشد الأنظمة الإسلامية حرصاً على تطبيق هذه الفريضة نظام طالبان في أفغانستان الذي زال من الوجود ولله الحمد..**

ولكي لا يغضب علينا المسؤولون في الدول الاسلامية، ورفعاً للحرج، ودفعاً لأي تهمة قد توجهها إلينا أي دولة اسلامية بأننا نسيء إلى سمعتها، فقد حرصنا على اتخاذ النظام البائد في أفغانستان نظام طالبان سيئ الذكر مثلاً دون أي تزوير لما كانت تقوم به من إذلال لشعبها باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طيلة سنوات حكم طالبان لأفغانستان..

فما هي الأعمال الاستبدادية التي كانت تقوم به حكومة طالبان تحت شعار حكومة إسلامية تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟

* إلزام المرأة بالجلوس في المنزل لا تخرج منه أكثر من مرتين في حياتها مرة الى بيت الزوجية وثانية الى قبرها حينما تموت.

* حرمان المرأة من حقوقها الشرعية الاسلامية، مثل:

- حرمانها من التعليم.
- حرمانها من العمل.
- حرمانها من حق اختيار شريك حياتها.
- حرمانها من حقوقها السياسية.

* منع تصوير المرأة لاستخدام صورتها في أي وثيقة إثبات شخصية.

* فرض تغطية وجه المرأة في الحالات الاضطرارية التي تخرج فيها من المنزل.

* إلزام الرجل بإطلاق لحيته على طبيعتها.

* قفل المحلات التجارية وقت الصلاة، وتعطيل العمل الحكومي أثناء ذلك.

* سَوْقُ الناس بقوة السلطة لأداء الصلاة جماعة في المساجد.

* مراقبة الأسواق التجارية.

* منع ممارسة تجارة الصور، وقفل محلات التصوير.

* منع الاتجار في الأشرطة الصوتية والمرئية الموسيقية والغنائية.

* إلغاء التلفزيون الحكومي..

* تحريم استقبال التلفزيونات الفضائية ووضع الدشات على أسطح المنازل..

* إلزام السيارات التي تنقل النساء بتظليل زجاجها أو وضع ستائر عليها.

* قفل محلات الكوفيرات وتجميل المرأة..

* تحطيم التماثيل التاريخية المصنوعة قبل آلاف السنين..

* جلد المخالفين لتعليماتها علناً في الأماكن العامة.. وكذلك جلد السكارى بدون تحقيق ومحاكمة..

* ملء السجون بالمتهمين الذين تقبض عليهم بدعوى مخالفة الأخلاق العامة والعادات الاسلامية بعد محاكمات صورية..

* تطبيق حد الرجم على الذين اتهموا بالزنى..

* تحريم الاختلاط في أماكن العبادة والأماكن العامة..

* التدخل في المناهج التعليمية ووسائل الإعلام..

* تكذيب كل ما ينشر عن مخالفة أعضائها للدين الصحيح أثناء ممارسة أعمالهم وتوجيه التهم الى الصحفيين الذين يتجرأون على نقد أعمالها ثم وضعهم في السجون..

* منع الأطباء من الكشف على النساء حتى لو أدى ذلك الى وفاتهن . . .

* * *

فهل هذه الممارسات التي كانت تقوم بها حكومة طالبان تحت ظلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحق الأفراد هي التفسير الصحيح الذي يعبر حقاً عن هذه الفريضة الإسلامية؟

إن نظام حكومة طالبان الذي كان يحكم الناس باسم الإسلام أجاد فرض سيطرته وهيمنته على المواطنين عن طريق أجهزة حكومية عديدة، هي:

١- الشرطة

٢- المباحث العامة.

٣- جهاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- البلديات.

٥- مراقبة المطبوعات قبل التصريح بدخولها إلى البلاد. والإذن بطباعة ونشر الكتب المحلية متوقف على موافقتها.

٦- الجمارك التي تفتش حقائب المسافرين.

٧- وزارات التجارة . .

٨- وزارات العمل . .

٩- وزارات الإعلام التي تمنع حرية الصحافة ووسائل الإعلام.

١٠- وزارات العدل.

١١- المؤسسات الدينية.

٢١- أجهزة المرور

* * *

أي أن المواطن في نظام طالبان مكبل بالقيود، لا يتنفس إلا الهواء الملوث، ولا يشم نسيم الحرية، وكل تلك الجهات تراقبه وتحقق معه وتعاقبه باسم الإسلام، بينما الحاكم يرتع بدون قيود، ويسيطر على السلطة، ويغرف من الأموال العامة بدون حساب..

وهذا يعني أيضاً:

أن الحاكم حر في الاستبداد بالمواطن..

أما المواطن فإنه مكبل بالقيود، محروم من حقوقه الشرعية..

سؤال وجيه

إن المعاصي الفردية التي يرتكبها بعض المواطنين تعود نتائجها على العاصي نفسه، وهو الذي يتحمل إثمها، ويتحمل مضارّها وحده دون سواه.

أما مخالفات الحاكم فإنها تعود بالضرر على الوطن كله ويتضرّر منها المواطنون أيضاً..

لتوضيح الفكرة نضرب للقارئ الكريم مثلين:

١- إذا شرب شخص خمراً، يؤثم السكران دون سواه، فيلحق الضرر بنفسه دون غيره وقد يؤذي آخرين في بعض الأحيان.

٢- إذا استولى الحاكم في نظام طالبان على الأموال العامة كلها أو بعضها، فإنّ الضرر والخسارة تلحق بالوطن والمواطنين جميعاً..

الأول: ارتكب معصية تضرّ مرتكبها وحده في الغالب.

الثاني: ارتكب جريمة كبيرة باستيلائه على شيء من الأموال العامة دون وجه حق، واعتدى على حقوق المواطنين المالية.

هنا أطرح سؤالي الذي أزعم بأنه سؤال وجيه.. يقول السؤال:

أي العملين أولى بالإنكار؟

الواضح لكل عاقل، بأن شرب الخمر منكر، إلا أن اختلاس الأموال العامة منكر أعظم.. وبالتالي فإن الإنكار على مَنْ أكل الجمل بما حمل أولى من الإنكار على مَنْ شرب الخمر..

فكيف يتم تطبيق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الحاكم؟

في الجواب عن السؤال تفاصيل أودّ بحثها بإيجاز وافٍ بالغرض ولا يخل بالهدف المقصود..

المعروف والمنكر في القرآن الكريم

للأستاذ نيازي عزالدين بحث جيد عن المعروف والمنكر في القرآن الكريم لا يستغني عنه باحث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من المفيد الاستعانة به في مجال الحديث المؤصل عن المعروف والمنكر في القرآن الكريم، هذا نصه:

المعروف لغةً من: عرف معرفةً

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾

وقال تعالى عن يوسف عندما دخل عليه إخوته في مصر: ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾

أي عرفهم يوسف، أما إخوته الذين كانوا يظنون أنه قد مات، فلم يعرفوه، فقال سبحانه: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

والمعرفة تختلف عن العلم فلو سألك أحدهم عن إنسان تعرفه لقال لك: هل تعرف فلاناً؟

ولا يقول لك: هل تعلم فلاناً؟

فالإنسان يعرف ويتعرف ويتعارف وقد عرف، ونقول عرف ومعروف، وفي هذه المواقف التي نستخدم فيها الكلمات المشتقة من المعرفة لاستخدم الكلمات المشتقة

من المعرفة والعلم، مثل: يعلم ويتعلم ومتعلم وعلم ومعلوم.. ونقيض: عرف: نكر ومنها: تنكر: أنكر وناكر ومنكر ومستنكر، ومن المعرفة نشتق كلمة العرف، والعرف هو المتعارف عليه بين الناس ومنه: المعروف.

وكلمة العرف وردت في القرآن مرة واحدة فقط في الآية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ونطلق اليوم العرف والأعراف على التقاليد، وهي أيضاً تعني المتعارف عليه بين الناس.

والله سبحانه وتعالى يستخدم كلمة المعروف في آيات الأحكام لعلمه سبحانه أن أعراف الناس تتطور مع تطور الزمن ومع تطور الإنسان العقلي أيضاً.

وكلمة المعروف، لها مصدران أساسيان في اللغة:

أولها مشتق من عرف، فهو معروف. فإذا كنا نتكلم عن إنسان عرف بالكتابة قلنا إنه كاتب معروف، وإذا عرف بالشعر قلنا إنه شاعر معروف.

والثانية مشتقة من العرف، فهو معروف، وهي بمعنى المتعارف عليه بين الناس، وكلمة معروف تأخذ أحياناً معنى الإحسان بحسب سياق الكلام، فنقول: فلان صنع معروفاً لفلان، أي قدم له خدمة فيها إحسان وجميل وعكسه الإساءة.

وفي العامية الدارجة نقول: «اعمل لي معروف» أي أرجوك أن تخدمني خدمة فيها جميل وإحسان، أو بمعنى

قدم لي هذا الجميل من فضلك. فلنستعرض مواطن كلمة المعروف في آيات القرآن الكريم:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾.

فكلمة معروف في هذا الآية بمعنى: المتعارف عليه بين الناس وكذلك في الآية التي قبلها:

﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾

وكذلك الآيات التي بعدها:

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾

﴿أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾

﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾

كل هذه الآيات فيها كلمة **المعروف** تأتي بمعنى المتعارف عليه بين الناس من أمور حسنة خيرة، ويجب أن نضع في تقديرنا دوماً أن المتعارف عليه بين الناس في مكة، هو غير المتعارف عليه في جاكرتا أو كراتشي أو أديس أبابا أو في دمشق وبغداد، فكل بلد يختلف عن البلد الآخر بعاداته وتقاليده وأعرافه، وإن كان هذا الاختلاف لا يكون جذرياً بحيث ينقلب الخير إلى شر أو المعروف إلى

منكر أو العكس، لكن تظل للأمور نسبيتها ومرونتها باختلاف الأرض والناس، وكذلك علينا أن لاننسى عامل الزمن، ففي كل تلك المدن التي عددناها إذا رجعنا فيها إلى القرن الماضي نجد أن المتعارف عليه لدى الناس في البلد ذاته كان يختلف عما هو عليه بين الناس اليوم، لأن الناس اختلفوا، والعقلية اختلفت باختلاف الزمان والتطور.

والمتعارف عليه بين الناس في أمور يقال عنه المعروف، وكذلك المتعارف عليه بين الناس في أمور الشر يقال عنه المنكر:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

وكلمة المنكر مصدرها كلمة نكر ينكر نكراً وإنكاراً فهو نكير ويفهم معناها من سياق الآيات كما في قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾

وذلك من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، عندما استضاف الملائكة وهو يظنهم من بعض الناس العاديين،

فقدم لهم الطعام، فلما اكتشف أنهم لا يأكلون علم أنهم ليسوا من البشر بصفاتهم المعروفة أو المتعارف عليها بين الناس. وعكس المعروف هو المنكر، لذا قال: فنكرهم، ولو تعرف عليهم لقال تعالى: فعرفهم.

وهكذا نجد أن عكس كلمة عرفهم: كلمة نكرهم:

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ وذلك في قصة النبي سليمان مع الملكة بلقيس عندما أحضر عرشها قبل استقبالها ليفاجئها به، فكلمة «نكروا» في الآية تعني صعبوا عليها إمكانية تعرف عرشها:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾

وفعل «نكر» كما بيّنا نقيض فعل «عرف»:

﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾

فالعذاب النكر، هو العذاب الشديد الذي لايعرف مثله الناس، فالعذاب الذي يتكلم عنه تعالى هو فوق ما يعرفه الناس ولذلك يصفه بالعذاب النكر:

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾

والإنكار هنا معناه تجاهل الحقيقة وهل يمكن أن تنكر الحقائق؟ فكل آيات الله موجودات حقيقة شاهدة بنفسها على وجودها، وعلى كونها معجزة وآية من آيات الله.

وترد في القرآن الكريم كلمة المنكر بمعنى يناقض المعروف المتداول من الأعمال الحسنة:

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾

وقد بينا أن المعروف نسبي بين الناس، كذلك المنكر نسبي أيضاً، مثال ذلك: من الأعراف العربية السائدة: الزواج بابنة العم أو العمة والخال والخالة وهي من الزيجات المفضلة عرفاً وعادة، في حين تعد بعض الشعوب هذه العادة منكرة، ومنها شعوب القفقاس الشركس مثلاً حتى بعد دخولهم الإسلام، فهم يعدون هذا الزواج من الأمور المخالفة للعرف والمستهجنة عادة.

ومن ذلك أيضاً أن المتعارف عليه في البلاد الإسلامية العربية في منطقة الشرق الأوسط عدم أكل لحم الخيل، وفي بلاد أخرى مثل أوزبكستان يعد وجبة مفضلة، فأكله شائع في بلد ومنكر في بلد آخر.

والمسلم الذي يفهم دينه من القرآن الكريم يجب أن يعلم من آيات القرآن أن من حق الأوزبكي أن يعد أكل لحم الخيل من المعروف المتداول في بلده، وكذلك من حقّ العربي أن يعرف أن أكل لحم الخيول من المنكر وغير المألوف.

لو فرضنا أن جزّاراً في إحدى المدن العربية الإسلامية قرر أن يبيع لحم الخيل للناس فلن يشتري منه أحد، لأن الناس لم تألف أكله، فإن باعه على أنه لحم عجل مثلاً تعرض لعقوبة الغش لأنه خالف الحقيقة، ولأنه

باع الناس ما لا يدخل في مألوف حياتهم وهكذا يتبين لنا أن **ليس هناك معروف مطلق، ولا منكر مطلق**، فالفكرتان نسبيتان تتطوران مع الزمان والمكان، وحسب عقلية الناس ووسائل الانتاج، والحالة الاقتصادية. ومن حق الناس أن يطوروا عادتهم شريطة ألا يدخل ذلك في مجال المحرمات كالميتة ولحم الخنزير. فمن خلال هذا الفهم يجب فهم كل الآيات القرآنية التالية:

﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾

الآمرون هنا هم المؤمنون. **والمعروف والمنكر هما المعروف والمنكر المتعارف عليهما في ذلك المجتمع ضمن حدود الخير والشر العامة**.

آية ترسم قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله عز وجل في سورة آل عمران:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ * وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ * وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ * وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾..

إن هذه الآية الكريمة ترسم قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي واضحة وضوح الشمس في معانيها، إلا أن ذلك لا يمنع من تفسير معاني بعض مفرداتها أولاً وقبل كل شيء:

لتكن : أمر إلهي بالإقدام على عمل معين.

منكم : من المسلمين.

أمة : مجموعة.

يدعون : يطالبون بشيء ما.

الخير : اسم جامع لكل عمل مفيد، من ذلك:

* دعوة الحكام الى العمل على تعليم المواطنين مجاناً.

* دعوة الحكام الى تأمين العلاج الطبي المجاني للمواطنين.

* دعوة الحكام الى تعبيد الطرق وتوفير سبل المواصلات.

* دعوة الحكام الى حماية البيئة من التلوث.

* دعوة الحكام لمساعدة الفقراء..

* دعوة الحكام لكفالة الأيتام.

* دعوة الحكام لرعاية الأرامل.

* دعوة الحكام للعناية بالمعاقين.

المعروف: الديموقراطية التي أصبحت معروفة في كل أنحاء العالم، وتشمل ما يلي:

* المشاركة الشعبية في الحكم.

* الوصول إلى كرسي الحكم بالانتخاب.

* تداول السلطة بحيث لا يستمر الحاكم في منصبه لأكثر من عشر سنوات على الأكثر.

* تكوين مؤسسات المجتمع المدني

* اتخاذ القرارات بالأغلبية البسيطة حتى لو كانت بزيادة ١٪ فقط.

* الشورى في اتخاذ القرارات السياسية.

* حماية الأموال العامة من الاعتداء.

* الاعتراف بالحريات العامة، كحرية الصحافة، والحرية السياسية، وحرية الاجتماع، وحرية السفر، وحرية الرأي.

* مراعاة حقوق الإنسان.

* سيادة القانون على الجميع.

* الفصل بين السلطات الثلاث: السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية.

* المحافظة على الأراضي العامة.

* الحكم بالعدل.

* المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

* قطع المقررات والرواتب التي تصرف على تنابلة السلطان.

* الشفافية التي تتيح لكل مواطن الاطلاع على كل المعلومات والأرقام المالية والميزانية بدون طلب.

* تطبيق قانون: «من أين لك هذا؟».

* الاعتراف بحقوق المرأة والعمل بها.

النهي : الاعتراض على

المنكر : ضد المعروف، وهو العمل المرفوض الذي يلزم الاعتراض عليه، ويشمل:

* احتكار السلطة..

* الاستبداد..

* الظلم

* احتلال منصب الحاكم بالقوة أو بالوراثة.

* إلغاء الانتخابات بحجة أن المواطنين غير مؤهلين لاستخدام هذا الحق.

* تقليص صلاحيات مجالس الشورى.

* التدخل في الأحكام القضائية.

* الاستيلاء على الأموال العامة.

* سيادة الفوضى وعدم وجود أنظمة للحكم..

* تخصيص رواتب ومنح مالية كبيرة لتنابلة السلطان.

* توزيع ملايين الأمتار على تنابلة السلطان بدون مقابل.

* التعتيم على الدخل العام للبلاد.

* السرية المفروضة على ميزانيات الأجهزة الحكومية ومصروفاتها..

* إهدار حقوق الانسان.

* التفرقة بين المواطنين.

* تقييد الحريات.

* تكميم الأفواه.

* عدم إعمال القوانين السائدة.

* عدم الاعتراف بحقوق المرأة.

ومن الكلمات المرادفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الحسبة، معارضة المنكرات، والموعظة، والنصيحة، والوصية.

وهذا يعني أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة أهداف هي:

الأول: الدعوة إلى الخير، وهي معطلة حالياً في كثير من الدول الإسلامية.

الثاني: الأمر بالمعروف.

الثالث: النهي عن المنكر، ومعارضته سلميّا.

كما يعني أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمل سياسي هدفه الرئيسي الإصلاح السياسي.

آية تقرر حق الجميع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال عزوجل في سورة التوبة:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ * يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾..

تقرر هذه الآية الكريمة الأحكام الآتية:

* أن المؤمنين أولياء المؤمنات، والمؤمنات أولياء المؤمنين.

* أن المؤمنين أولياء بعض.

* أن المؤمنات أولياء بعضهن.

* أن الولاية يمكن أن تمتد أفقيّاً كولاية الأخ على أخيه أو على أخته.. وأنها تكون من الكبير للصغير، ومن الصغير للكبير، أي أنها تكون رأسية من أعلى إلى تحت ومن تحت إلى أعلى.

* أن الولايات المذكورة تنطبق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أي أنه يحق للمواطن أن يأمر الحاكم بالمعروف وينهاه عن المنكر، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقتصر أداؤه على الحاكم نحو المحكوم، وأن العملية عملية متبادلة، أفقيّاً ورأسيّاً.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام

كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأخذ صوراً عديدة في الاسلام، فقد يكون في الشورى، وقد يكون على شكل اعتراض على المنكر، وقد يكون على هيئة موعظة، وقد يكون في صورة نصيحة . . وقد يأتي على صورة وصية، وكان ذلك واضحاً حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

وابتداءً من العصر الأموي حتى اليوم استطاع الاستبداد السياسي في مختلف العصور أن يبعد الفقهاء والعلماء عن التفكير في الفقه السياسي، وهو الأمر الذي جعل أبحاثهم تقتصر على فقه العبادات والمعاملات إلى حد الحكم بفساد صلاة من يهرش جسده أثناء الصلاة ثلاث مرات متوالية، بينما أهملوا البحث في السياسة الشرعية، مما أدى الى إخراج الأمة الإسلامية من القطار السياسي، وبقائها تحت رحمة الحكام المستبدّين.

لقد جعل الأمويون والعباسيون من القتل على الشبهة أمراً طبيعيّاً، في ظل الظلم والاستبداد الذي كمم الأفواه وألغى حقوق الإنسان، وبمرور الايام طغى الفساد في الأرض وصار صفة من صفات الحكام المتأسلمين في كثير

من الدول الإسلامية، وصدّق المسلمون الأحاديث الكاذبة المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم التي وضعت من أجل استمرار الاستبداد السياسي، والاستيلاء على المال العام، وانتهاك حقوق الإنسان التي كفلها الإسلام للمسلمين.

واستطاع المستبدون في حكومة طالبان من تحوير هدف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من معارضة الفساد السياسي إلى معاقبة الأفراد على الأخطاء الشخصية، كأن ذنب من يشرب الخمر أكبر من ذنب من يستولي الأموال العامّة.

إن خوف الحكام المستبدين في نظام طالبان على المواطنين كبير جدّا، ومن علامات ذلك أن يرغموهم على ترك عملهم التجاري والصلاة جماعة في المسجد وقت الصلاة لأن المواطنين لا يعرفون مصالحهم بأعمالهم التي تؤدي بهم إلى دخول النار، ولأن الحكام يحبون مواطنيهم أكثر من حبهم لأنفسهم، فإنهم يرغمونهم على العمل الصالح وترك المعاصي.. بينما هم يرتعون في خيرات الأمة المنهوبة بلا حسيب أو رقيب.

ورغم ذلك كله كان هناك علماء أحرار، فشلت سلطات الاستبداد من شراء ضمائرهم وأصواتهم.

يقول الدكتور سلطان بن خالد بن حثيلين في كتابه: الفقهاء والخلفاء:

لقد بنى الفقهاء المقاومون للحكم الأموي والداعون الى الإصلاح السياسي بجميع الوسائل، حتى وإن كانت تعني القتال والصدام المسلح، بنوا فتاويهم على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة التي تدعو إلى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الفساد والظلم، وإقامة الحكم بالعدل، وقد رأوا أن السكوت على ظلم بني أمية يؤدي الى انتهاك حقوق الإنسان المسلم، وضياع الدين، وأن وحدة الأمة والجماعة لا يمكن أن تقوم إلا إذا حورب الجور والفساد، ويعبر عن موقفهم الفقيه الحنفي الجصّاص في رده على من قال: إن الإنكار على السلطان يجب أن لا يتعدى النصيحة، فقال: **وزعموا أن السلطان لا ينكر عليه الظلم والجور وقتل النفس التي حرم الله، فصاروا شرًّا على الأمة من أعدائها المخالفين لها، لأنهم أقعدوا الناس عن قتل الفئة الباغية، وعن الإنكار على السلطان الظلم والجور.**

ويضيف الدكتور سلطان بن حثيلين بأن هذا السكوت يؤدي إلى ضعف الأمة الإسلامية وتغلب أعدائها عليها، مع إشاعة الظلم والفساد وذهاب الأمن وضياع الدين والدنيا. . . . لقد وجد الفقهاء أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو السبيل الوحيد لضمان وحدة الجماعة. .

في أحد الدروس التي كان يلقيها العز بن عبدالسلام وجه إليه أحد تلاميذه سؤالاً عن حكم الدين في العلماء الذي يسكتون عن الظلم فأفتى الشيخ الجليل بأن السكوت

عن المنكر منكر، وأن علماء المسلمين هم أولى الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن تخلوا عن واجبهم فما أطاعوا الله والرسول، وإن كان سكوتهم طمعاً في الأموال والهدايا والمناصب فإثمهم مضاعف، فإن لم يفعلوا فهم العصاة؛ والعياذ بالله، ولا طاعة لهم.

من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تاريخ المسلمين

رغم كل صور الاستبداد التي عانى منها المسلمون بعد نهاية عصر الخلفاء الراشدين، إلا أن التاريخ لم يغفل عن توثيق بعض صور الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي كانت تعارض المنكرات السياسية بأساليب شتى، منها: الموعظة والنصيحة والوصية والنقد. وكانت كلها تتم في العلن وليس سرًّا، ولولا ذلك الجهر في الاحتساب بنقد الفساد السياسي لما وصل إلينا شيء من أخباره وأبطاله، بالاضافة الى ذلك، لا يوجد في القرآن أو السنة دليل واحد يحث على أن تكون الحسبة على الحكام بشكل سري..

* * *

من عذَّب الناس عذَّبه الله:

* روي أن عمر بن الخطاب مر على قوم قد أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام فقال: ما شأن هؤلاء؟ فقيل له: أقيموا في الشمس في الجزية، فأنكر ذلك ودخل على أميرهم وقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ عَذَّبَ النَّاسَ عَذَّبَهُ اللهُ».

ما أنصفناه:

* روي أن عمر بن الخطاب مرّ بباب قوم عليه سائل يسأل وهو شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة. قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضح له بشيء من المنزل، ثم أرسل عمر إلى خازن بيت المال، فقال له: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم».

* * *

يمنح ما لا يملكه:

* منح أبوبكر الصديق أثناء خلافته قطعة أرض لأحد الصحابة، فسأله عمر بن الخطاب:

- هل هذه الأرض لك؟

فأجابه الصديق قائلاً: لا..

فسأله عمر: هل استشرت في أمرها أحداً؟

قال الصديق: لقد استشرت من حولي.

فسأله عمر: أهي ملك لهم؟

قال الصديق: لا، هي للمسلمين جميعاً..

فقال عمر: فهلاَّ أوسعت المسلمين مشورة؟!

* * *

إن آباءك قهروا الناس بالسيف:

* قدم سليمان بن عبدالملك المدينة وهو يريد مكة. فأرسل إلى أبي حازم فدعاه فلما دخل قال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فأجابه بكل صدق وصراحة قائلاً: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال سليمان: كيف القدوم على الله؟

قال: يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لي عند الله؟

قال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث يقول: «إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم».

وأخذ سليمان يسأل وأبو حازم يجيب . . . إلى أن قال: ما تقولون فيما نحن فيه؟ قال: أو تعفيني؟ قال: لا بد فإنها نصيحة تلقيها إليّ.

قال أبوحازم: إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضى منهم حتى قتلوا منهم قتلة عظيمة وقد ارتحلوا. قال رجل من الحاضرين لأبي حازم: بئس ما قلت.

قال أبو حازم: إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

ثم سأل سليمان أبا حازم: وكيف لنا أن نصلح

الفساد؟ فأجابه: أن تضعه في حقه. قال سليمان: ومن يقدر على ذلك؟ فأجابه: من يطلب الجنة ويخاف النار.

❊ ❊ ❊

عائشة تعارض عثمان بن عفان:

❊ عارضت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان وقالت له: أي عثمان: خصصت بيت مال المسلمين لنفسك، وأطلقت أيدي بني أمية على أموال المسلمين، وولَّيتهم البلاد، وتركت أمة محمد في ضيق وعسر، قطع الله عنك بركات السَّماء، وحرمك خيرات الأرض».

❊ ❊ ❊

اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي:

❊ جيء بسعيد بن جبير فأدخل إلى مجلس الحجاج، ونظر رجل من الحاضرين إلى سعيد فبكى. فقال له سعيد: ما يبكيك قال: لما أصابك، قال سعيد: فلا تبك، كان في علم الله أن يكون هذا ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

قال الحجاج لسعيد: ما اسمك؟

سعيد: سعيد بن جبير

الحجاج: بل شقيّ بن كُسَيْرٍ

سعيد: بل كانت أمي أعلم باسمي منك

الحجاج: شقيت أمك وشقيت أنت

سعيد: الغيب يعلمه الله وحده

الحجاج: لأبدلنك الدنيا ناراً تَلَظّى

سعيد: لو علمتُ أن ذلك بيديك لا تخذتُك إلٰهاً

الحجاج: فما قولك في محمد؟

سعيد: نبي الرحمة وإمام الهدى

الحجاج: فما قولك في عليّ أهو في الجنة أم في النار؟

سعيد: لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها.

الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟

سعيد: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: فأيهم أعجب إليك؟

سعيد: أرضاهم لخالقه.

الحجاج: فأيهم أرضى للخالق؟

سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرَّهم ونجواهم.

الحجاج: أحب أن تصدقني.

سعيد: إن لم أحب أن أكذبك.

الحجاج: فما بالك لا تضحك؟

سعيد: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين تأكله النار.

الحجاج: فما بالنا نضحك؟

سعيد: لم تستو القلوب.

فأمر الحجاج باللؤلو والزبرجد والياقوت مجمعة بين يديه.

سعيد: إن كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء من الدنيا إلا ما طاب وزكى.

ثم يدعو الحجاج العود والناي فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي. بكى سعيد فقال الحجاج: ما يبكيك؟ أهو اللعب؟

سعيد: هو الحزن.

أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾.

وأما العود فشجرة قطعت من غير حق.

وأما الأوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة.

الحجاج: ويلك يا سعيد.

سعيد: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك.

سعيد: اختر أنت لنفسك. فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله بها في الآخرة.

الحجاج: ألا تريد أن أعفو عنك؟

سعيد: إن كان العفو فمن الله. وأما أنت فلا براءة ولا عذر.

الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج ضحك، فأخبر الحجاج بذلك فردوه إليه.

الحجاج: ما أضحكك؟

سعيد: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك.

فأمر الحجاج بالنطع فبسط، وقال: اقتلوه.

سعيد: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

الحجاج: وجهوا به لغير القبلة.

سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾.

الحجاج: كُبُّوهُ على وجهه.

سعيد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

الحجاج: اذبحوه.

سعيد: أما أنا فأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة.

ثم دعا سعيد على الحجاج بقوله: اللَّهُمَّ لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.

وقيل: لما بلغ الحسن البصري موت سعيد قال: «اللّهُمَّ قاصمَ الجبابرة اقصم الحجاج» فما بقي بعد ذلك أياماً حتى وقع في جوفه الدود وأصابه الكزاز..

* * *

لماذا العلماء ورثة الأنبياء؟

يقول الدكتور إسماعيل إبراهيم في كتابه : مشايخ ضد السلطة والسلطان: العلماء ورثة الأنبياء، عليهم أن يبينوا للناس أمور دينهم، وصالح دنياهم وأخراهم حتى لا يكونوا ممن عناهم الله بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران، آية: ١٠٠].

فإن لم يؤدوا رسالتهم انتفت عنهم الخيرية التي أمتن الله بها على أمة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة، آية ١٥٩].

فالعلماء ورثة الأنبياء لأنهم يكملون الرسالة ويدعون إلى الحق، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، مثلما يفعل بعض علماء هذه الأيام، الذين نسوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

أين علماء اليوم الذين سكتوا عن الحق من علماء الأمس الذين اعتزوا بالعلم فأعزهم الله ولم يبيعوا إخلاصهم بِعَرَضٍ زائل من أعراض الدنيا، ولم يقولوا كلمات النفاق حرصاً على منصب أو مال.

فلقد أغلى الله سعرهم، ورفع من قيمتهم، فلم يستطع أن يشتريهم أحد غير ربهم.

من هؤلاء العلماء الفقيه التقي الورع، أمير المؤمنين في الحديث «سفيان بن سعيد الثوري» سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. والذي ولد بالكوفة عام ٩٧هـ. ونشأ بها، أراد الخليفة المنصور منه أن يوليه القضاء فأبى، فارتحل إلى المدينة، ثم سكن البصرة ومات بها عام ١٦١هـ. من كتبه: الجامع الكبير، والجامع الصغير في الحديث.

هذا العالم لم يخش في الله لومة لائم، ولم يسكت على باطل رآه، ولم يكفَّ عن توجيه النصح إلى الحكام قبل المحكومين. عندما تولى الرشيد الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا «سفيان الثوري»، فإنه لم يأت وكان بينهما صحبة، فشق ذلك عليه، فكتب «الرشيد» إليه كتاباً قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبدالله «هارون» أمير المؤمنين إلى أخيه في الله سفيان بن سعيد الثوري».. أما بعد:

يا أخي فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين، وقد

آخيتك في الله مؤاخاة لم أحرم فيها حبك، ولم أقطع منها ودك. وإني منطوٍ لك على أفضل المحبة، وأتمِّ الإرادة.

ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى «يقصد الخلافة» لأتيتك ولو حَبْواً، لما أجد لك في قلبي من المحبة، وإنه لم يبق أحد من إخواتي وإخوانك إلا زارني، وهنأني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت المال، وأعطيتهم من المواهب السنية ما فرحت به نفسي وقرّت به عيني. وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت إليك كتاباً مني إليك أعلمك بالشوق الشديد إليك. وقد علمت يا أبا عبدالله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته. فإذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل».

* * *

أنفقت مال المسلمين في غير حقه:

فلما وصل الكتاب إلى سفيان وفرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا.

فقيل له ما نكتب إليه..؟

قال اكتبوا له: بسم الله الرحمن الرحيم.. من العبد الميت «سفيان» إلى العبد المغرور بالآمال «هارون» الذي سلب حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن.

أما بعد:

فإني كتبت إليك أعلمك أني قد حرَّمت حبَّكَ، وقطعت ودَّكَ.

وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه. وأنفذته بغير حكمه. ولم ترض بما فعلته وأنت ناءٍ عني، حتى كتبت إليَّ تشهدني على نفسك..؟؟

فأما أنا فإنِّي قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل..؟؟

يا هارون.. هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم رضي بذلك رعيتك؟.

فشدَّ يا هارون مئزرك، وأعدَّ للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً. واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل. فاتَّقِ الله في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً.

يا هارون قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب

العالمين.. ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويحدُّون الشارب، ويزنون ويجلدون الزاني، ويسرقون ويقطعون يد السارق. ويقتلون ويقتلون القاتل. أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟

فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات، آية ٢٢]. أين الظلمة وأعوانهم؟ فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك. والظالمون حولك، وأنت لهم سابق وإمام إلى النار.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه، الآيات ١٢٤ . ١٢٦].

وكأني بك ياهارون، وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك.. بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاتّق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته. واعلم أنّ هذا الأمر لم يصل إليك إلا وهو صائر إلى غيرك.

وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزوده زاداً ينفعه. ومنهم من خسر دنياه وآخرته.

فاحتفظ بوصيتي واتَّعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم أني قد نصحتك، وما أبقيت في النصح غاية. والسلام.

هذا ما فعله «سفيان الثوري» مع الخليفة «هارون الرشيد».. فهل يمكن أن يحدث ذلك في أيامنا هذه؟ هل نجد العالم الفقيه الذي يقول للحاكم اتَّقِ الله؟

* * *

النهي عن الإسراف في أموال الأمة:

لم يكن هذا هو حال «سفيان» مع «هارون» وحده، ولكنه كان كذلك مع كل حاكم وسلطان لا يرعى الله في أمة محمد صلى الله عليه وسلم. **فقد تعلم «الثوري» أن الإسراف في أموال الأمة من أكبر الكبائر عند الله سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه لا يرضى للمرء أن يسرف في ماله الخاص، فكيف بأموال المسلمين.**

قال سفيان الثوري: لما حج الخليفة المهدي أرسل إليَّ من يأخذني إليه ليلاً، فلما مثلت بين يديه أدناني، ثم قال: لأيِّ شيء لا تأتينا؟ فنستشيرك في أمرنا، فما أمرتنا في شيء صرنا إليه، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه، فقلت له: كم أنفقت في سفرك هذا؟ قال: لا أدري، لي أمناء ووكلاء، قلت: فما عذرك غداً إذا وقفت بين يَدَي الله تعالى، فسألك عن ذلك؟، إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما حج قال لغلامه: كم أنفقنا في

سفرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً، قال: وَيْحَكَ، أجْحَفْنا بيتَ مال المسلمين.

كان «سفيان الثوري» من الرجال الذين اختصّهم الله من بين العباد بقوة الإيمان وصدق العزيمة في مواجهة الباطل والوقوف بجانب الحق والدفاع عن مصالح الأمة.

فلما أخذه الحرس بغير رفق ورآه الرشيد قال: ارفقوا بالشيخ، فلما وقف بين يديه قال له: يا أمير المؤمنين، ما مر بي يوم منذ ولدتني أمي أتعب فيه من يومي هذا، فاتّق الله في خلقه واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته، وانصح لنفسك في رعيتك، فإن لك مقاماً بين يدي الله تعالى، أنت فيه أذلّ من مقامي هذا بين يديك.

* * *

تموت وحدك يا أمير المؤمنين:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء، الآيتان ٨٨، ٨٩].

من هذا المنطلق القرآني فهم «ابن السماك» الدنيا على حقيقتها، فحذر من الاغترار بها حتى لا تبعد الناس عن ربهم، وعما أعده لهم من خير في جنات النعيم، لم ينصح بها العامة فقط، بل نصح بذلك أيضا ولي أمر المسلمين، وحاكمهم هارون الرشيد، الذي قال لابن السماك: عظني.

فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك، فلا ترضَ من نفسك إلا بما رضي الله به عنك، فإنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت أولى الناس بذلك يا أمير المؤمنين، من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقاً أن يعتق نفسه، قبل أن يحين يوم لقاء ربه، يا أمير المؤمنين، من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها.

يا أمير المؤمنين، ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب.

يا أمير المؤمنين تموت وحدك وتحاسب وحدك، وأنك لا تقدم إلا على نادم مشغول، ولا تخلف إلا مفتوناً مغروراً، وإنك وإيانا في دار سفر وجيران مرتحلين.

كان «ابن السماك» يقدم النصيحة وهو يعرف أن من يستمع إليه هو خليفة المسلمين، ومع ذلك كان يسترسل في نصحه وإرشاده، لم يهتز له جفن، ولم تأخذه رهبة أو خوف، فالنصيحة واجبة، حتى ولو كانت للحاكم الذي يرهبه الجميع.

حذَّر ابن السماك الرشيد من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، وطلب منه أن يتقي الله سبحانه وتعالى، وأن يعد العدة ليوم الحساب، يوم يلقى الله وحده، ويحاسب وحده، ولن ينفعه أحد من هؤلاء البطانة الذين لا يدلُّون

إلى خير، ويدفعون الحاكم إلى الانشغال بدار الغرور.

* * *

من هو الإمام العادل؟

* كتب الحسن البصري نصيحة لخامس الخلفاء الراشدين: عمر بن عبدالعزيز يقول: الإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم في مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمُّ بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصيُّ اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم ويمون كبيرهم، وهو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك إلى الله، كعبد ائتمنه سيده، فاستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين: أن الله أنزل الحدود ليزدجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها، وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتصُّ لهم؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة

أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزوَّد له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك، ويتركونك في قعره وحيداً فريداً فتزوَّدْ له، واذكر إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فتبوء بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك، وتحمل أثقالاً وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يَدَي الله في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عَنَتِ الوجوه للحيِّ القيُّوم.

إني يا أمير المؤمنين لم آلُك شفقةً ولا نصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة، لما يرجوه له من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

* * *

عمر بن عبدالعزيز يطلب موعظة:

وكتب «عمر بن عبدالعزيز» رضي الله عنه إلى «الحسن البصري»: عظني فكتب إليه الحسن:

يا أمير المؤمنين، كن للمثل من المسلمين أخاً، وللكبير ابنا، وللصغير أباً، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً، فتدخل النار.

* * *

نصيحة الحسن البصري لعمر بن عبدالعزيز:

وذات مرة كتب أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى فقهاء العراق أن يأتوه، فاعتلّ الحسن. أصيب بفتق في بطنه فكتب إليه معتذراً ناصحاً يقول: يا أمير المؤمنين، إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا، يا أمير المؤمنين، لو أن لك عمر نوح، وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان؟ ولو نلت ذلك لم يكن لي بد من أن أشرب بكأس الأولين.

* * *

الدنيا دار سفر:

وسط زخارف الدنيا ومظاهر الحكم، يحتاج الحاكم إلى التذكير حتى لا يغتر بالدنيا، وهنا تأتي أهمية وجود الناصح والمستشار الذي يجرؤ على توجيه النصح لوجه الله، وقول الحق لا يخشى في الله لومة لائم، وهكذا كان الحسن البصري الذي كتب إلى عمر بن عبدالعزيز يعظه ويحذره من الدنيا:

«يا أمير المؤمنين، الدنيا دار ظعن. «بمعنى انتقال» وليست بدار إقامة على حال، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فأحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغنيّ فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تُذِلُّ من أعَزَّها وتفرِّق من جمعها، فهي كالسّمّ يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه».

فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها، فإنها غدّارة ختّالة خدّاعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخُطّابها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، وهي والذي بعث محمداً بالحق لأزواجها قاتلة.

فاتق ياأمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤدٍّ إلى الهلكة والفناء.

واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد وتاركها موفق والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوَّفه الله وَحَذِرَ ما حَذَّر، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من

لاعقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف سوء العاقبة.

والدنيا وَايْمُ الله يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ
وَإِلاَّ فَإِنِّي لا إِخَالُكَ نَاجِيَا

ولما وصل كتابه إلى عمر، بكى وانتحب حتى أشفق عليه من كان عنده وقال: رحم الله الحسن، فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، ولله هو من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

* * *

معلم الإسكندرية:

* وصل «أبو بكر الطرطوشي» إلى مصر برفقة صديقه الشيخ عبدالله السايح حيث نزلا برشيد وأقاما بها. وعندما استولى الوزير الأفضل شاهنشاه على الإسكندرية انتقم من أهلها الذين أيدوا نزار ابن الخليفة المستنصر وقام بقتل العديد من العلماء المالكيين فتعطلت الشعائر الدينية ولم تقم الجمعة في مساجدها، وسمع أهل الإسكندرية أن في رشيد فقيه كبير فركبوا إليه يطلبون منه أن يتصدر حلقات الدرس في مساجدهم ليفقه الناس في أمور دينهم.

استقر بالطرطوشي المقام في الإسكندرية وبدأ يدرِّس وينشر العلم على مذهب مالك، وتقاطر الناس على حلقاته يأخذون عنه ويقرؤون عليه ويفيدون من علمه، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه.

وتزوج بعد قليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده في أموالها وتحسنت أحواله، ووهبته داراً من أملاكها، جعل سكنه معها في الدور الأعلى واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقي فيها دروسه ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوافدين على الإسكندرية.

* * *

نصحية العلماء:

وبعد أن استقرت الحياة «بالطرطوشي» في الإسكندرية خرج لزيارة القاهرة وهناك حرص على لقاء الوزير صاحب السلطان الأعلى وقتذاك «الأفضل شاهنشاه» بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه لا ليسأله منحة أو عطية، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين، وليعظه الموعظة الحسنة، وليطلب إليه الرفق بالرعية وإشاعة العدل بينهم وفتح أبواب قصره لكل شاكٍ أو متظلِّم.

بعد أن حياه بتحية الإسلام قال له:

- أيها الملك: إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك

محلاً عالياً شامخاً، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك.

وإن الله تعالى ألزم الورى طاعتك، فلا يكونن أحد أطوع لله منك، وإن الله تعالى أمر عباده بالشكر، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل والإحسان، قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾.

واعلم أن هذا الملك الذي أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك.

فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾.

واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود . عليهما السلام . فسخر له الإنس والجن والشياطين والوحوش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم دفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فو الله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها

كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى ومكراً به، فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ما قلَّدك، وجعلك كهفاً للملهوف، وأماناً للخائف.

هكذا خاطب «الطرطوشي» العالم الزاهد الملك الأفضل ذا الحَوْل والطَّوْل، وهو في أوج سلطانه وعظمته، والكل يأتمرون بأمره، فهزَّ كيانه هزًّا وإن كان استنكره فيما بينه وبين نفسه.

* * *

ما ظننت أن الشيطان يحكمك:

* لما اشتدت الجفوة بين المنذر بن سعيد والناصر لدين الله نتيجة محاسبة المنذر له على إسرافه في بناء مدينة الزهراء أراد ولده الحكم أن يزيل ما وقع بينهما، فاعتذر له عند الخليفة فقال: يا أمير المؤمنين، إنه رجل صالح وما أراد إلا خيراً، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك، فلما قال له ولده ذلك، أمر ففرشت بفرش الديباج وجلس فيها لأهل دولته، ثم قال لقرابته ووزارئه: أرأيتم أم سمعتم ملكاً كان قبلي صنع مثل ما صنعت؟ فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك الأوحد في هذا الشأن. فبينما هم على ذلك، إذ دخل المنذر بن سعيد ناكساً رأسه. فلما أخذ مجلسه قال له: ما قال لقرابته فأقبلت دموع المنذر تنحدر

على لحيته لسوء ما رأى، وقال: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكن مع ما آتاك الله تعالى، وفضلك به على المسلمين حتى ينزلك منازل الكافرين، فاقشعرّ الخليفة من قوله وقال له: انظر ما تقول. كيف ينزلني الله منازلهم؟.

فقال: نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ وَزُخْرُفًا﴾.

فوجم الخليفة ونكس رأسه ملياً. وجعلت دموعه تنحدر على لحيته. ثم أقبل على المنذر وقال له: جزاك الله خيراً عني وعن الدين خيراً، فالذي قلت هو الحق، ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً على صفة غيرها.

* * *

أشد الناس عذاباً يوم القيامة:

* استدعى أبو جعفر المنصور ابن طاووس وكان معه الإمام مالك بن أنس، فلما دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى ابن طاووس فقال له: حدثني عن أبيك طاووس فأجابه: حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه. فأدخل الجور في عدل» فأمسك المنصور ساعة.

قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه. ثم التفت إليه أبو جعفر. فقال: عظني يا ابن طاووس قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

* * *

الإمام العادل صلاح كل فاسد:

* كتب الحسن البصري الى الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز قائلاً: اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقرّ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر الى الله ويريهم، وينقاد الى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عزوجل كعبد إئتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ واذكر ياأمير المؤمنين ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم

الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظر الى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عَنَتِ الوجوه للحيِّ القيوم. إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولوا النهى من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك، من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

* * *

أعطهم حقوقهم:

* لما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبدالعزيز ابنه على مصر، **وقال له حين ودعه**: أرسل حكيماً ولا توصه. أي بني، انظر إلى عمالك، فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم

يصدقوك في الحق. واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى. وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سَوْرَةِ الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة. ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم اعرف منازلهم منك على غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف الله عليك.

* * *

خصال منكرة:

قال ميمون بن مهران: قال عمر بن عبدالعزيز: يا ميمون دع أربع خصال:

- لا تدخلن على سلطان ما أمكنك، وإن قلت: آمره بالمعروف وأنهاه عن المنكر.
- لا تخلون بامرأة أبداً، وإن قلت: أعلمها القرآن.
- لا تتكلم بكلام تعتذر منه لاحقاً..
- لا تطلب المعروف أبداً ممن يصنعه مع أقاربه..

وهذا يعني أن بعض العلماء كانوا يرتادون مجالس السلاطين لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ولذلك يحق لي أن أقول أن الإصلاح السياسي من أعظم أهداف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

زعيم للمعارضة من الصحابة

حاول مؤرخو الحكام المستبدين محو إسم الصحابي الجليل: جندب بن جنادة المعروف بأبي ذر الغفاري من التاريخ والمشهور بحبه الشديد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمعارضة الباطل، إلا أن المؤرخين الأمناء أرخوا لأبطال الحق والعدالة والمساواة المعارضين للظلم والفساد..

مضى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده عصر أبي بكر الصديق وعصر عمر بن الخطاب في تفوق كامل على مغريات الحياة ودواعي الفتنة فيها، كما يقول الأستاذ خالد محمد خالد الذي يضيف قائلاً:

ولقد طال عهد أمير المؤمنين «عمر» فارضاً على ولاة المسلمين وأمرائهم، وأغنيائهم في كل مكان من الأرض، زهداً، وتقشفاً، وعدلاً يكاد يكون فوق طاقة البشر..

إن والياً من ولاته في العراق، أو في الشام، أو في صنعاء.. أو في أي من البلاد النائية البعيدة، لا يكاد يأكل نوعاً من الحلوى، لا يجد عامة الناس قدرة على شرائه، حتى يكون الخبر قد وصل إلى «عمر» بعد أيام.. وحتى

تكون أوامره الصارمة قد ذهبت تستدعي ذلك الوالي إلى المدينة، ليلقى حسابه العسير..!!

ليهنأ «أبو ذر» إذن.. وليهنأ كثيراً، مادام الفاروق العظيم أميراً للمؤمنين..

وما دام لا يضايق أبا ذر في حياته شيء مثلما يضايقه استغلال السلطة، واحتكار الثروة، فإن ابن الخطاب بمراقبته الصارمة للسلطة، وتوزيعه العادل للثروة سيتيح له الطمأنينة والرضا.. وهكذا تفرغ لعبادة ربه، وللجهاد في سبيله.. غير لائذ بالصمت إذا رأى مخالفة هنا، أو هناك.. وقلما كان يرى..

بيد أن أعظم، وأعدل، وأروع حكام البشرية قاطبة يرحل عن الدنيا ذات يوم، تاركاً وراءه فراغاً هائلاً، ومحدثاً برحيله من ردود الفعل ما لا مفرّ منه، ولا طاقة للناس به، وتستمر الفتوح في مدها، ويعلو مدُّ الرغبات، والتطلع إلى مناعم الحياة وترفها..

ويرى «أبو ذر» الخطر..

إن ألوية المجد الشخصي توشك أن تفتن الذين كان دورهم في الحياة أن يرفعوا راية الله..

إن الدنيا بزخرفها الباطل وغرورها الضاري، توشك أن تفتن الذين كل رسالتهم أن يجعلوا منها مزرعة للأعمال الصالحات..

إن المال الذي جعله الله خادماً مطيعاً للإنسان،

يوشك أن يتحول إلى سيد مستبد.. ومع من..؟؟

مع أصحاب «محمد» صلى الله عليه وسلم الذي مات ودرعه مرهونة، في حين كانت أكوام الفيء والغنائم عند قدميه..!!

إن خيرات الأرض التي ذرأها الله للناس جميعاً.. وجعل حقهم فيها متكافئاً توشك أن تصير حكراً ومزية..

إن السلطة التي هي مسؤولية ترتعد من هول حساب الله عليها أفئدة الأبرار، تتحول إلى سبيل للسيطرة، وللثراء، وللترف المدمر الوبيل.

رأى «أبو ذر» كل هذا، فلم يبحث عن واجبه ولا عن مسؤوليته.. بل راح يمد يمينه إلى سيفه.. وهزَّ به الهواء فمزّقه، ونهض قائماً يواجه المجتمع بسيفه، الذي لم تعرف له كبوة.. ولكن سرعان ما رن في فؤاده صدى الوصية التي أصاه بها الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعاد السيف إلى غمده، فما ينبغي أن يرفعه في وجه مسلم..

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾.

ليس دوره اليوم أن يقتل.. بل أن يعترض..

وليس السيف أداة التغيير والتقويم، بل الكلمة الصادقة، والأمينة، المستبسلة..

الكلمة العادلة التي لا تضل طريقها، ولا ترهب عواقبها.

لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً وعلى

ملإ من أصحابه، أن الأرض لم تقلّ، وأن السماء لم تظلّ أصدق لهجة من أبي ذر..

ومن كان يملك هذا القدر من صدق اللهجة، وصدق الاقناع، فما حاجته إلى السيف..؟

إن كلمة واحدة يقولها، لأمضى من ملء الأرض سيوفاً.

فليخرج بصدقه هذا، إلى الأمراء.. إلى الأغنياء.. إلى جميع الذين أصبحوا يشكلون بركونهم إلى الدنيا خطراً على الدين الذي جاء هادياً، لا جابياً.. ونبوةً، لا ملكاً.. ورحمة، لا عذاباً.. وتواضعاً، لا استعلاء.. وتكافؤاً، لا تمايزاً.. وقناعة، لا جشعاً.. وكفاية، لا ترفاً.. واتئاداً في أخذ الحياة، لا فتوناً بها ولا تهالكاً عليها..

فليخرج إلى هؤلاء جميعاً، حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق، وهو خير الحاكمين.

وخرج أبو ذر إلى معاقل السلطة والثروة، يغزوها بمعارضته معقلاً معقلاً، فمعارضة مواطن الفساد من أعظم واجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وأصبح في أيام معدودات الراية التي التفت حولها الجماهير، والكادحون.. حتى في الأقطار النائية التي لم يره أهلها بعد.. طار إليها ذكره.. وأصبح لايمر بأرض، بل لايبلغ اسمه قوماً إلا أثار تساؤلات هامة، تهدد مصالح ذوي السلطة والثراء.

ولو أراد هذا الثائر الجليل أن يتخذ لنفسه ولحركته علماً خاصاً لما كان الشعار المنقوش على هذا العلم سوى مكواة تتوهج حمرة ولهباً، فقد جعل نشيده وهتافه الذي يردده في كل زمان ومكان.. ويردده الناس عنه كأنه نشيد.. هذه الكلمات:

«بشر الكانزين الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم يوم القيامة»..!!

لا يصعد جبلاً، ولا ينزل سهلاً، ولايدخل مدينة، ولا يواجه أميراً إلا وهذه الكلمات على لسانه.

ولم يعد الناس يبصرونه قادماً عليهم إلا استقبلوه بهذه الكلمات:

«بَشِّرِ الكَانِزِينَ بِمَكاوٍ مِنَ النَّار»..

لقد صارت هذه العبارة علماً على رسالته التي نذر لها حياته، حين رأى الثروات تتركز وتحتكر.. وحين رأى السلطة استعلاء واستغلالاً.. وحين رأى حب الدنيا يطغى ويوشك أن يطمر كل ما صنعته سنوات الرسالة العظمى من جمال وورع، وتفانٍ وإخلاص.

يحدثنا ابن أبي الحديد عن تفاصيل المحاولات التي قام بها أبوذر الغفاري في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان يراه في حياته ومعارضته للأخطاء التي حصلت في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، فيقول: إن عثمان بن عفان لما أعطى مروان بن

الحكم وغيره بيوت الأموال، واختص زيد بن ثابت بشيء منها، جعل أبوذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: بشر الكافرين بعذاب أليم، ويرفع بذلك صوته، ويتلو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، فرفع ذلك إلى عثمان مراراً وهو ساكت.

ثم أرسل عثمان بن عفان إلى أبي ذر مولى من مواليه: أن أنته عما بلغني عنك، فقال أبو ذر: أو ينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى، وعيب من ترك أمر الله تعالى؟ فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلى وخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان.

فأغضب عثمان ذلك وأحفظه، فتصابر وتماسك، إلى أن قال عثمان يوماً، والناس من حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً، فإذا أيسر قضى؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال أبوذر: يا ابن اليهوديين، أتعلمنا ديننا؟

فقال عثمان: قد كثر أذاك لي وتولعك بأصحابي، إلحق الشام. فأخرجه إليها.

وحسر أبو ذر زعيم المعارضة رداءه المتواضع عن ساقيه، وسابق الريح إلى الشام، كما يقول الأستاذ خالد محمد خالد.. ولم يكد الناس العاديون يسمعون بمقدمه حتى استقبلوه في حماسة وشوق، والتفوا حوله أينما ذهب

وسار: حدثنا يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ويلقي أبو ذر على الجموع حوله نظرات فاحصة، فيرى أكثرها ذوي خصاصة وفقر.. ثم يرنو ببصره نحو المشارف القريبة فيرى القصور والضياع.. ثم يصرخ في الحافين حوله، قائلاً:

«عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه»...؟!!! ثم يذكر من فوره وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع الأناة مكان الانفلات، والكلمة الشجاعة مكان السيف.. فيترك لغة الحرب هذه ويعود إلى لغة المنطق والإقناع، فيعلم الناس أنهم جميعاً سواسية، كأسنان المشط.. وأنهم جميعاً شركاء في الرزق.. وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.. وأن أمير القوم ووليهم، هو أول من يجوع إذا جاعوا، وآخر من يشبع إذا شبعوا.. لقد قرر أن يخلق بكلماته وشجاعته رأياً عاماً في كل بلاد الإسلام، يكون له من الفطنة، والمناعة، والقوة ما يجعله شكيمة لأمرائه وأغنيائه، وما يحول دون ظهور طبقات مستغلة للحكم، أو محتكرة للثروة..

وفي أيام قلائل، كانت الشام كلها، كخلايا نحل وجدت ملكتها المطاعة.. ولو أعطى «أبو ذر» إشارة عابرة بالثورة لاشتعلت ناراً.. ولكنه. كما قلنا. حصر اهتمامه في خلق رأي عام يفرض احترامه، وصارت كلماته حديث المجالس، والمساجد، والطرق.

ولقد بلغ خطره على الاحتكارات الناشئة مداه، يوم ناظر «معاوية» على ملإ من الناس، ثم أبلغ الشاهد للمناظرة الغائب عنها، وسارت الرياح بأخبارها..

لقد وقف «أبو ذر» أصدق العالمين لهجة، كما وصفه نبيه وأستاذه صلى الله عليه وسلم..

وقف يسائل معاوية في غير خوف ولا مداراة عن ثرواته قبل أن يصبح حاكماً، وعن ثروته اليوم..!!

عن البيت الذي كان يسكنه بمكة، وعن قصوره بالشام اليوم..!!

ثم يوجّه السؤال للجالسين حوله من الصحابة الذين صحبوا معاوية إلى الشام، وصار لبعضهم ضياع وقصور.

ثم يصيح فيهم جميعاً: أفأنتم الذين نزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بين ظهرانيهم..؟؟

ويتولى الإجابة عنهم: نعم أنتم الذين نزل فيكم القرآن، وشهدتم مع الرسول المشاهد.. ثم يعود ويسأل: أو لا تجدون في كتاب الله هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

فيقول معاوية: لقد أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب..

ويصيح أبو ذر: لا.. أنزلت لنا ولهم..

ويتابع أبو ذر القول ناصحاً معاوية ومن معه أن يخرجوا عن كل ما بأيديهم من ضياع، وقصور، وأموال.. وألا يدخر أحدهم لنفسه أكثر من حاجات يومه.

وتتناقل المحافل والجموع نبأ هذه المناظرة وأنباء أبي ذر..

ويتعالى نشيد أبي ذر في البيوت والطرقات..

«بَشِّرِ الكَانِزِينَ بمكاوٍ مِنْ نارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»..

ويستشعر معاوية الخطر، وتفزعه كلمات المعارض الجليل، ولكنه يعرف له قدره، فلا يقربه بسوء، ويكتب من فوره للخليفة عثمان - رضي الله عنه - يقول له: «إن أبا ذر قد أفسد الناس بالشام».

ثم يلقي ابن أبي الحديد الضوء اللازم على رد فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه إزاء تذمر معاوية بن أبي سفيان من أبي ذر الغفاري فيقول: فكتب عثمان إلى معاوية: أن احمل جندباً إليَّ، على أغلظ مركب وأوعره. فوجه به مع من سار به الليل والنهار، واحمله على شارف «ناقة مسنة» ليس عليها إلا قتب، حتى قدم به المدينة، وقد سقط لحم فخذيه من الجهد.

فلما قدم بعث إليه عثمان: إلحق بأي أرض شئت. قال: بمكة؟ قال: لا، قال: ببيت المقدس؟ قال: بأحد المصرين؟ قال: لا، ولكني مسيرك إلى ربذة، فسيَّره إليها، فلم يزل بها حتى مات.

وفي رواية الواقدي، أن أبا ذر لما دخل على عثمان، قال له:

لا أنعم الله بقين عينا

نعم ولا لقاه يوماً زينا

تحية السخط إذا التقينا

فقال أبو ذر: أنا جندب، وسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم «عبدالله» فاخترت اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي سماني به على اسمي. فقال له عثمان: أنت الذي تزعم أنا نقول: «يد الله مغلولة» [المائدة: ٦٤]، و«إن الله فقير ونحن أغنياء» [آل عمران: ١٨١]؟ فقال أبو ذر: لوكنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده، ولكني أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إِذَا بَلَغَ بَنُو أَبِي الْعاصِ ثَلاثِينَ رَجُلاً، جَعَلُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً، وَعِبادَهُ خَوَلاً، وَدِينَهُ دَخَلاً» فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله؟ قالوا: لا، قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله؟ فقال أبو ذر لمن حضر: أما تدرون أني صدقت؟ قالوا: لا والله ما ندري، فقال عثمان: ادعوا لي علياً، فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: أقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي عليه السلام: أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، وقد صدق أبو ذر. فقال: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأني سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر فقال من حضر: أما هذا فسمعناه كلنا من رسول الله، فقال أبو ذر: أحدثكم أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فتتهموني؟ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم!

وروى الواقدي بإسناده، عن صهبان، مولى الأسلميين، قال: رأيت أبا ذر يوم دُخل به على عثمان، فقال له: أنت الذي فعلت وفعلت؟ فقال أبو ذر: نصحتك فاستغششتني، ونصحت صاحبك فاستغشني. قال عثمان: كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبها، قد أنغلت الشام علينا، أي: حرضت أهلها علينا، فقال له أبو ذر: اتبع سنة صاحبيك لايكن لأحد عليك كلام، فقال عثمان: مالك وذلك لا أم لك؟ قال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فغضب عثمان، وقال: أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب، إما أن أضربه، أو أحبسه، أو أقتله، فإنه قد فرق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام. فتكلم عليّ عليه السلام - وكان حاضراً - فقال: أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، فأجابه عثمان بجواب غليظ، وأجابه علي عليه السلام بمثله.

قال الواقدي: ثم إن عثمان حظر على الناس أن يقاعدوا أبا ذر، أو يكلموه. فمكث كذلك أياماً، ثم أتي به فوقف بين يديه، فقال أبو ذر: ويحك ياعثمان! أما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأيت أبا بكر وعمر؟ هل هديك كهديهم؟ أما إنك لتبطش بي بطش جبار، فقال عثمان: أخرج عنا من بلادنا، فقال أبو ذر: ما أبغض إليَّ جوارك! فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئت، قال: أخرج إلى الشام أرض الجهاد؟ قال: إنما جلبتك من الشام لما قد أفسدتها، أفأردك إليها؟ قال: أفأخرج إلى العراق؟ قال: لا، إنك إن تخرج إليها تقدم على قوم أولي شبه وطعن على الأئمة والولاة، قال: أفأخرج إلى مصر؟ قال: لا، قال: فإلى أين أخرج؟ قال: إلى البادية، قال أبو ذر: أصير بعد الهجرة أعرابياً؟ قال: نعم، قال أبو ذر: فأخرج إلى بادية نجد؟ قال عثمان: بل إلى الشرق الأبعد، أقصى فأقصى، امض على وجهك هذا، فلا تعدون الربذة. فخرج إليها.

لما أُخرج أبو ذر إلى الربذة، أمر عثمان، فنودي في الناس: ألا يكلم أحد أبا ذر ولا يشيعه. وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به. فخرج به، وتحاماه الناس إلا علي بن أبي طالب عليه السلام وعقيلاً أخاه، وحسناً وحسيناً عليهما السلام، وعماراً، فإنهم خرجوا معه يشيعونه، فجعل الحسن عليه السلام يكلم أبا ذر، فقال له مروان: إيها يا حسن! ألا تعلم أن أمير المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل؟ فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل علي عليه

السلام على مروان، فضرب بالسوط بين أذني راحلته، وقال: تنح لحاك الله إلى النار!

فرجع مروان مغضباً إلى عثمان، فأخبره الخبر، فتلظى على علي عليه السلام، ووقف أبوذر فودعه القوم، ومعه ذكوان مولى أم هانئ بنت أبي طالب.

قال ذكوان: فحفظت كلام القوم - وكان حافظاً - فقال علي عليه السلام: يا أبا ذر، إنك غضبت لله، إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك. فامتحنوك بالقلى، ونفوك إلى الفلا، والله لو كانت السموات والأرض على عبد رتقاً، ثم اتقى الله لجعل له منها مخرجاً. يا أباذر لا يؤنسنك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل. ثم قال لأصحابه: ودعوا عمكم، وقال لعقيل: ودع أخاك.

فتكلّم عقيل، فقال: ما عسى أن نقول يا أبا ذر، وأنت تعلم أنا نحبك، وأنت تحبنا؟ فاتق الله، فإن التقوى نجاة، واصبر فإن الصبر كرم. واعلم أن استثقالك الصبر من الجزع، واستبطاءك العافية من اليأس، فدع اليأس والجزع.

ثم تكلّم الحسن، فقال: ياعماه، لولا أنه لا ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيع أن يصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ماترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدة ما اشتد منها برجاء مابعدها، واصبر حتى تلقى نبيك صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض.

ثم تكلّم الحسين عليه والسلام، فقال: يا عماه، إن

الله تعالى قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عما منعوك، وأحوجهم إلى ما منعتهم! فاسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لا يقدم رزقاً، والجزع لا يؤخر أجلاً.

ثم تكلّم عمار رحمه الله مغضباً، فقال: لا آنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت. مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين!

فبكى أبو ذر رحمه الله - وكان شيخاً كبيراً - وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة! إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم، إني ثقلت على عثمان بالحجاز، كما ثقلت على معاوية بالشام، وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين، فأفسد الناس عليهما، فسيرني إلى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله، والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة.

ورجع القوم إلى المدينة، فجاء علي عليه السلام إلى عثمان، فقال له: ما حملك على رد رسولي، وتصغير

أمري؟ فقال علي عليه السلام: أما رسولك، فأراد أن يرد وجهي فرددته، وأما أمرك فلم أصغره.

قال: أما بلغك نهيي عن كلام أبي ذر؟ قال: أوكلما أمرت بأمر معصية أطعناك فيه؟ قال عثمان: أقد مروان من نفسك، قال: مم ذا؟ قال: من شتمه وجذب راحلته، قال: أما راحلته فراحلتي بها، وأما شتمه إياي، فوالله لا يشتمني شتمة إلا شتمتك مثلها، لا أكذب عليك. فغضب عثمان، وقال: لم لا يشتمك؟ كأنك خير منه؟ قال علي: إي والله ومنك! ثم قام فخرج.

فأرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين والأنصار وإلى بني أمية، يشكو إليهم علياً عليه السلام، فقال القوم: أنت الوالي عليه، وإصلاحه أجمل. قال: وددت ذاك، فأتوا علياً عليه السلام، فقالوا: لو اعتذرت إلى مروان وأتيته؟ فقال: كلا، أما مروان فلا آتيه ولا أعتذر منه، ولكن إن أحب عثمان أتيته.

فرجعوا إلى عثمان، فأخبروه، فأرسل عثمان إليه، فأتاه ومعه بنو هاشم، فتكلّم علي عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما ما وجدت علي فيه من كلام أبي ذر ووداعه، فوالله ما أردت مساءتك ولا الخلاف عليك، ولكن أردت به قضاء حقه. وأما مروان فإنه اعترض، يريد ردي عن قضاء حق الله عز وجل، فرددته رد مثلي مثله، وأما ماكان مني إليك، فإنك أغضبتني، فأخرج الغضب مني ما لم أرده.

فتكلّم عثمان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما ما كان منك إليّ فقد وهبته لك، وأما ما كان منك إلى مروان، فقد عفا الله عنك، وأما ما حلفت عليه فأنت البر الصادق، فأدن يدك، فأخذ يده فضمّها إلى صدره.

فلمّا نهض قالت قريش وبنو أمية لمروان: أأنت رجل؟ جبهك علي، وضرب راحلتك، وقد تفانت وائل في ضرع ناقة، وذبيان وعبس في لطمة فرس، والأوس والخزرج في نسعة؟ أفتحمل لعلي عليه السلام ما أتاه إليك؟ فقال مروان: والله لو أردت ذلك لما قدرت عليه.

لقد تفرغ «أبو ذر» للمعارضة الأمينة وتبتل.

وقضى عمره كله يحدق في أخطاء الحكم وأخطاء المال، فالحكم والمال يملكان من الإغراء والفتنة ما يخافه «أبو ذر» على إخوانه الذين حملوا راية الإسلام مع رسولهم صلى الله عليه وسلم، والذين يجب أن يظلوا لها حاملين.

والحكم والمال - أيضاً - هما عصب الحياة للأمم والجماعات، فإذا اعتورهما الضلال، تعرضت مصاير الناس للخطر الأكيد.

ولقد كان أبو ذر يتمنى لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يلي أحد منهم إمارة أو يجمع ثروة، وأن يظلوا كما كانوا رواداً للهدى، وعباداً لله.

وقد كان يعرف ضراوة الدنيا وضراوة المال، وكان يدرك أن أبا بكر وعمر لن يتكررا..

ولطالما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يحذر أصحابه من إغراء الإمارة، ويقول عنها: «إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة.. إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»..

كما كان أبو ذر الغفاري يدرك، ما للحكم وما للثروة من أثر حاسم في مصاير الناس، ومن ثم فإن أي خلل يصيب أمانة الحكم، أو عدالة الثروة، يشكل خطراً داهماً يجب دحضه ومعارضته.

ولقد عاش أبو ذر ما استطاع حاملاً لواء القدوة العظمى للرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، أميناً عليها، حارساً لها.. وكان أستاذاً في فن التفوق على مغريات الإمارة، والثروة..

عرضت عليه إمارة بالعراق فقال:

«لا، والله.. لن تميلوا عليّ بدنياكم أبداً»..

ورآه صاحبه يوماً يلبس جلباباً قديماً فسأله:

أليس لك ثوب غير هذا..؟! لقد رأيت معك منذ أيام ثوبين جديدين..؟

فأجابه أبو ذر:

«يا ابن أخي.. لقد أعطيتهما من هو أحوج إليهما مني»..

قال له: والله إنك لمحتاج إليهما!!

فأجاب أبو ذر:

«اللهم غفراً.. إنك لمعظم للدنيا، ألست ترى على هذه البردة..؟؟ ولي أخرى لصلاة الجمعة، ولي عنزة أحلبها، وأتان أركبها، فأي نعمة أفضل مما نحن فيه»...؟؟

وجلس يوماً يحدث ويقول:

«أوصاني خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع:

- أمرني بحب المساكين، والدنو منهم..
- وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي..
- وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً..
- وأمرني أن أصل الرحم..
- وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًّا..
- وأمرني أن أكثر من: لا حول ولا قوة إلا بالله».

ولقد عاش هذه الوصية، وصاغ حياته وفقها، حتى صار «ضميراً» بين قومه وأمته..

يقول الإمام «علي»:

«لم يبق اليوم أحد لا يبالي في الله لومة لائم غير أبي ذر».!!

عاش يناهض استغلال الحكم، واحتكار الثروة.

عاش يدحض الخطأ، ويبني الصواب..

عاش متبتلاً لمسؤولية النصح والتحذير..

كيف كان «أبو ذر» يعالج سكرات الموت في الربذة؟!

تعالوا بنا إليه نؤد للراحل العظيم تحية الوداع، ونبصر في حياته الباهرة مشهد الختام.

إن هذه السيدة السمراء الضامرة الجالسة إلى جواره تبكي، هي زوجته..

وإنه ليسألها: فيم البكاء والموت حق..؟

فتجيبه بأنها تبكي: «لأنك تموت، وليس عندي ثوب يسعك كفناً»..!!!

فيبتسم ابتسامة الشفق الغارب، ويقول لها: اطمئني..

«..لا تبكي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأنا عنده في نفر من أصحابه يقول: «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض، تشهده عصابة من المؤمنين..»

وكل من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية، ولم يبق منهم غيري.. وهاأنذا بالفلاة أموت، فراقبي الطريق.. فستطلع علينا عصابة من المؤمنين، فإني والله ما كذبت ولا كذبت».

وفاضت روحه إلى الله..

ولقد صدق..

فهذه القافلة التي تغذّ السير في الصحراء، تؤلف جماعة من المؤمنين، وعلى رأسهم «عبدالله بن مسعود» صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن «ابن مسعود» ليبصر المشهد قبل أن يبلغه.. مشهد جسد ممتد يبدو، كأنه جثمان ميت، وإلى جواره سيدة وغلام يبكيان.

ويلوي زمام دابته والركب معه صوب المشهد، ولايكاد يلقي نظرة على الجثمان حتى تقع عينه على وجه صاحبه وأخيه في الله والإسلام أبي ذر.

وتفيض عيناه بالدمع، ويقف على جثمانه الطاهر، يقول:

«صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.. تَمْشِي وَحْدَكَ، وَتَموتُ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ».!!

حزب الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اذا أمعنا النظر في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في الآية ١٠٤ من سورة آل عمران نجد أنها تطلب من المسلمين تكوين أمة، أي مجموعة، وهذه المجموعة يمكن أن تكون عبارة عن حزب سياسي يُطلق عليه اسم: «حزب الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» يعمل على تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية وهي:

أولاً: الدعوة الى الخير عن طريق حث الحكومة على ممارسة الأعمال الخيرية مثل معالجة المرضى واغاثة المنكوبين والقضاء على الفقر ورعاية الأيتام والنفقة على الأرامل وغير ذلك.

ثانياً: الأمر بتطبيق الديموقراطية التي سادت العالم كله، وأصبحت معروفة، وهي مجموعة من الاجراءات والخطوات كما ذكرنا بعنوان «آية ترسم قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ثالثاً: النهي عن المنكرات العظيمة مثل تلك

المنكرات التي مارستها حكومة طالبان، ويكون ذلك بنقد سياساتها العامة وبخاصة اذا كان فيها ظلم واستبداد واهدار لحقوق الإنسان ويعتدي أعضاؤها على المال العام بالاختلاس منه، وعدم توزيعه بالعدل بين المواطنين والكذب والتضليل.

وحزب الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الحزب المثالي في العقيدة الإسلامية الذي يمارس العمل السياسي **مع مراعاة الشروط الآتية:**

١- أن لا يكون هو الحزب الوحيد، وانما ينبغي أن تكون هناك أحزاب أخرى لها سياستها التي تنطلق من الآية ١٠٤ من سورة آل عمران، فتعمل كل الأحزاب على تحقيق مصلحة البلاد.

٢- أن لا يكون حزباً حكوميًّا، لأنه لو كان حزباً حكوميًّا، فإنه سوف يؤيد الحكومة في كل سياستها ولا ينتقدها أبداً.

٣- لا يمارس الحزب أعماله إلا بعد الحصول على موافقة الحكومة.

٤- أن يكون أعضاؤه من صفوة أفراد المجتمع من الذين يخافون الله ولا يخشون في الحق لومة لائم ولم يصدر ضدهم حكم شرعي يخل بالشرف والأمانة والدين والأخلاق الحميدة.

إن القول بإمكانية إنشاء أحزاب سياسية في العالم

الإسلامي مثل حزب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وان ذلك من الدين، واجه معارضة شديدة من حكومة طالبان التي ترتدي عباءة الدين، وتدعي بأنها حكومة اسلامية دستورها القرآن، فتلجأ الى رجال الدين لمحاربة فكرة إمكانية تكوين أحزاب سياسية في العالم الإسلامي.

ولعلّ من المناسب هنا الإشارة إلى أدلتها في معارضة تكوين أحزاب سياسية في البلاد التي تقول بأنها بلاد إسلامية:

أولاً: من القرآن الكريم:

«١» قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ * وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

تدل هذه الآية على أنّ الله تعالى قد أصدر أمراً مباشراً إلى عباده بالابتعاد عن الانقسام إلى جماعات، إذ يصبح هذا الانقسام أمراً منكراً إذا أدى إلى انقسام في الدين، أو مؤدياً إليه على الأقل.

«٢» قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الآية ١٥٩ من سورة الأنعام] وفي هذه الآية دليل على أنَّ التفرق إلى شِيَع، وما يؤدي إليه من اقتتال وفتن يعد ردَّة عن الإسلام، وأنّ ما يؤدي اليه الانشقاق يعتبر عذاباً يوازي ما في الآية من أشكال العذاب. وإذا أردنا أن

نخرج من هذا المآل المشؤوم فما علينا إلاّ أن نتجنّب أي خطوةٍ في هذا الطريق، مهما كان الجهد الذي نبذله في سبيل ذلك، وأن نتواصى بذلك، وندعوا إليه.

«٣» قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

لقد ساوت هذه الآية بين التفرق إلى شيع - كل يذهب بما لديه بعد ما تفرقوا في دينهم - وبين الشرك بالله، وهو خطيئة لا تغتفر، ويستنتج من هذه الآية أنّ الاستقامة على النهج القويم، تقتضي تجنُّب الانضمام إلى جماعات، مما يعني معه الانحدار إلى مستوى الحزبيّة التي قد تؤدي إلى الهلاك.

«٤» قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [الآية ١٠٣ من سورة القصص].

تدل هذه الآية على أنّ الانقسام إلى أحزاب يؤدي إلى فقدان القوة مع ما يستتبع ذلك من تعريض الناس للاستعباد، وهي عين الخطة التي اتَّبعها فرعون في تفريق قومه إلى شيع، فتمكّن بهذا الأسلوب من اضطهادهم، واستعبادهم.

وقد خلصوا من كل تلك الاستدلالات إلى القول: بأنّ رحمة الله في الألفة، والاتحّاد عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم

مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الآية ٤ من سورة آل عمران].

ولبيان سلامة تلك الاستدلالات من عدمها يقول الدكتور صالح حسن سميع في كتابه: «أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي»:

«أن كل تلك الاستدلالات لا يمكن التسليم بها، ولا بد من مناقشتها تمهيداً لبيان رأينا التفصيلي فيها:

«١» فكلمة «شيعة» وكلمة «فرقة» وترادفهما مع كلمة «حزب» - التي وردت في الآيات التي استدل بها أصحاب المذهب الأول على تحريم نظام تعدّد الأحزاب في الدولة الإسلامية - لا تعني أنَّ هذه المصطلحات هي مصطلحات استفزازية ومزعجة، فكما وردت هذه المصطلحات على سبيل الذم في الآيات التي استدل بها أصحاب هذا المذهب، فإن مثل هذه المصطلحات قد وردت على سبيل المدح في آيات أخرى، وتدل على الفئة الراشدة المهديَّة، منها:

«أ» قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الآية ١٥ من سورة القصص].

«ب» قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الآية ٨٣ من سورة الصافات].

فالأولى أشارت إلى شيعة موسى، والثانية أشارت إلى أنَّ إبراهيم كان من شيعة نوح.

«٢» كما أنَّ القرآن الكريم قد توقع الخلاف في الرأي إلى درجة تؤدي إلى اقتتال المسلمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ومع هذا الاختلاف الذي وصل إلى درجة الخلاف، والاقتتال فقد سمى الله الطوائف الثلاث - الطائفتان المقتتلتان، والطائفة الساعية إلى الصلح بينهما - بأنها مؤمنة.

«٣» إن الاختلاف سنّة اجتماعية قررها الله سبحانه في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ * وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

«٤» إن الآيات التي استدل بها أصحاب المذهب الأول تحرِّم التفرق في الدين، وهذا مما لا خلاف فيه، لأنه تفرق في العقائد، أو بمعنى آخر: فإن هذا التفرق محظور شرعاً لأنه يطال المقومات الأساسيّة التي ترتكز عليها البنية الاجتماعية بمفهومها الواسع للأمة.

وهذا الفهم لا يسري على المعارضة الجماعية، أو الأحزاب السياسية، لأن المفترض أنّ هذه الاحزاب ينحصر دورها داخل الأمّة في اقتراح البدائل العملية للوضع الراهن، وذلك في نطاق البحث عن تحسين الأحوال فيها. وهذه البدائل لا يجوز أن تخرج عن المقومات الأساسية للأمة، والتي يفترض أن الدستور قد نظمها وحدد معالمها

على هدى من الكتاب والسنَّة، وأن هذا الدستور قد تمَّت الموافقة عليه في استفتاء شعبي، ومن ثم لاتملك الجماعة السياسية الخروج على أحكامه، وإنما هي تعمل في إطارها، أضف إلى ذلك أنّ تلك البدائل أو البرامج الحزبية لابد أن تخضع هي الأخرى لقواعد الشرعية، وما تنبثق عنها من مشروعيَّة.

ومن هذا المنطلق فإنَّ أي تجمع سياسي يسعى إلى تقويض النظام الأساسي للأمة، إنما يقوم بنوع من الانتحار السياسي، لأنه سيفقد تأييد الناس، باعتبار أنَّ وحدة الأمة تعتبر - في تعاليم الإسلام - قيمة أساسية لا يمكن التضحية بها على الإطلاق».

ثانيا: تأويلات المعارضين:

* إن الإسلام بطبيعته يؤدي إلى وحدة الفكر، لأنه نظام عقيدي أو مذهبي فكلما كان الإيمان صحيحاً خالياً من الانحرافات، أدى إلى تضامن الأمَّة، وتماسكها، ووحدة عقيدتها، كما كان الأمر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

أما إذا اختلفت الأمة في المسائل العقيدية، فإن هذا يؤدي إلى تشقق القاعدة الشعبية وهي الأمة، فتنقسم إلى فرق، كل فرقةٍ تجتمع حول أمر خلافي من أمور العقيدة، وربما تفاقم الخلاف، فتحول إلى حرب أهلية، على الوجه الذي حدث في فتنة علي ومعاوية في أيام الإسلام الأولى، ومن ثم فليس قيام الفرق الإسلامية، وما يتبعها من قيام

الأحزاب السياسية، من خصائص الإسلام ولوازمه، بل إنّ ماحصل من تكوّن فرق إسلامية بعد الفتنة الكبرى ما هو إلا مرض انتاب الأمة في ذلك الحين، فعلينا أن نتجنَّب مثل تلك الفرق، ونسعى إلى وأدها كلما أطلت برأسها.

وهذا التفرق في فهم العقائد يتميز عن الاختلاف في الرأي فيما يتعلق بالمسائل الفرعية التي لا نص لها من الكتاب أو السنة، أو أنّ لها نصاً ولكنه يحمل أكثر من وجهٍ للتفسير:

فالأوّل: يؤدي إلى إنشاء فرق وأحزاب. أما **الثاني**: فإنه اجتهاد يؤدي الاختلاف فيه إلى إنشاء مذاهب فقهية، وهذا الاختلاف في الاجتهاد لا يستفحل الخلاف معه إلى درجة تؤدي إلى إنشاء أحزاب سياسيّة تبعاً لها، لأنه ليس من الجسامة بحيث يجعل المسلم ينتمي إلى طائفة خاصّة، أو يخرجه من طائفته لينتمي إلى طائفة أخرى.

وانطلاقاً من هذا التحليل، فإنه ينبغي التخلص من النظام الحزبي لما يؤدي إليه من تدنيس النظام السياسي بأنواعٍ من العصبيّة الجاهليّة، والذي من الممكن فيه أن تستبدّ بزمام الأمر في البلاد طائفة مولعة بالنفوذ والسلطة، فتنفق أموال الجمهور في استمالة من ينتصرون لها دائماً من الأهالي، ثم تفعل في البلاد ماتشاء، وتشاء أهواؤها بتأييد من هؤلاء الأنصار، غير آبهةٍ بمساعي الجمهور في كبح جماحها، والأخذ على يدها.

* وبالإضافة إلى ما تقدَّم، فإن النظام الحزبي لايتلاءم مع الإسلام، ذلك أنَّ النظام الحزبي يجعل العضو ملتزماً برأي الحزب، وحكمه بالنسبة للأمور التي تعرض على المجالس النيابيَّة، ومن ثم فليس له حق الخروج على دائرة الرأي الحزبي.

ومن هنا كانت صورة المعارضة في النظام الديمقراطي عبارة عن وقوف الأقلّيّة - البعيدة عن كراسي الحكم - في وجه حزب الأغلبية المتولي للسلطة في الدولة، وخرجت المسألة عن أن تكون بحثاً عن الأصلح للأمَّة إلى انتهاز للفرص، بالحق، وبالباطل، بقصد إضعاف الخصم، والتشهير به، وإحراج مركزه، على كل رأي يبديه، ولو كان صالحاً، لأنَّ في الموافقة عليه تقوية للرأي المعارض.

وهذا السلوك السياسي لا مكان له في المذهبية الإسلامية، لأن الموازين فيها تختلف تماماً عن الموازين السابقة: فالمسلم مسؤول أولاً وقبل كل شيء أمام ربّه، دون اعتبار لرأي فردٍ أو جماعة، وعلى المسلم أن يسير وراء الحق، ويدور في نطاقه، أينما كان، ويقف وراءه، وينصره، ويدافع عنه، مبتغيا في ذلك وجه الله.

وبهذا تكون المعارضة الفردية في الإسلام مختلفة اختلافاً جوهرياً عن المعارضة في ظل نظام الأحزاب في البلدان التي جعلته واحداً من أهم أسس نظامها السياسي: ففي ظل هذا النظام الأخير تتسم المعارضة بالالتزام

الحزبي، بصرف النظر عن أوجه الحق، أو أوجه الباطل في الآراء المعارضة. أما في الإسلام فإنَّ الأمر جد مختلف: فقد يكون الفرد مع الحكومة اليوم، لأنه يرى أن الحق بجانبها، وقد يكون ناقداً من أعنف النقاد والمعارضين لها في الغد، لأنه يرى أن ذلك هو الحق.

يعلّق الدكتور صالح حسن سميع على هذه التأويلات التي لا يمكن الاستدلال بها، فيقول:

* «فالاستدلال التاريخي بالفرق الإسلامية من خوارج، ومعتزلة، وشيعة... وما جنته على الأمَّة الإسلامية، لأنَّها تفرَّقت في العقائد: هو استدلال غير موفق، لأنه بُني على تعميم شديد.

فممّا لا شك فيه أنّ التاريخ قد أثبت لنا أنَّ بعض الفرق الإسلاميَّة قد انتسبت إلى الإسلام نفاقاً، فسعت إلى تقويض الدين، والسلطة معاً، بدوافع شعوبيّة، ومذهبيَّة، وقد نشأت هذه الفرق - كالراونديّة، والمقَنِعيَّة، والخَرَّميّة، وغيرها - في بلاد فارس، وبحثت عن استناداتها المذهبية في عقائد ما قبل الإسلام، وإن انتسبت إلى الإسلام في الظاهر.

وإذا استثنينا مثل تلك الفرق فإنّ جلّ الحركات المعارضة التي قارعت السلطة، وسعت إلى تولي مركز القيادة كانت - في الأعم الأغلب - ترفع شعارات إسلامية خالصة، وتحمل وجهاً إسلامياً صرفاً، وتبحث عن

متكآتها، وأصولها الفكرية من صميم العقيدة الإسلاميَّة، بكل مصادرها: النظريَّة والتاريخَّية.

ومن هنا فإن حركات المعارضة في التاريخ الإسلامي - والتي قارعت القيادات والسلطات التي مارست الملك العضوض - ليست شراً كلها، ولكنَّها كانت محاولات جاءت لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي، وذلك بصرف النَّظر عما شابها من أخطاء، وما لابس معطياتها من شوائب وأكدار، فالدافع - في أحيانٍ كثيرةٍ - كان دافعاً واحداً، وهو تحقيق النموذج الإسلامي الراشد على مستوى القيادة، باعتباره مفتاح الحركة العقيديَّة، والتاريخيَّة على حدٍ سواء».

* «أما القول: بأنَّ التعددية الحزبية تقتضي التزام الفرد برأي الحزب المنتمي إليه، بصرف النظر عن الخطأ والصواب في مضمون ذلك الالتزام: هذا القول: هو قول صحيح، ولا غبار عليه، لأنَّ من الأمور المؤكدة أنَّ الأحزاب قائمة بطبيعتها على التشيع، والتمسك بشعار: «أنصر أخاك ظالماً، أو مظلوما»، وإن لم تعترف الأحزاب صراحة بأنَّ هذا الأمر هو أساس قيامها.

إلا أنَّ تلك الحقيقة وإن مثَّلت عيباً جوهرياً في التعددية الحزبيَّة المنبثقة عن المذهبيات الوضعيَّة، فإنها لا تجد لها مكاناً في المعارضة المنظمة في مفهومها الإسلامي، لأنَّ القائمين بأمر هذه المعارضة ليسوا إلاَّ جماعات متخصصِّة تضطلع بالواجبات العامَّة، كما أنَّ

الحق - في المفهوم الإسلامي هو ديدن الفرد، والجماعة أيضاً، والمسلم الحق لن يفرط في هذا المفهوم تحت شعار: «الالتزام الحزبي» لأنّه يعرف المقصود من شعار: «أنصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً»: فقد قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله: أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً، كيف أنصره؟ فقال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإنّ ذلك نصره» ومن ثم يكون الشعار الإسلامي في هذا الميدان هو: «انصر أخاك مظلوماً، وانصحه ظالماً».

بحث الدكتور صالح حسن سميع في قيام أحزاب سياسية معارضة في كتابه: «أزمة الحرية في الوطن العربي» فقال: ارتبط هذا المصطلح بالمواقف السيئة التي وقفها كفار قريش، ومن تحالف معهم من عرب الجزيرة ضد الرسول صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه، وقد ندد القرآن الكريم بهذا التحالف في سورة كاملة سميت بسورة «الأحزاب».

وقد أدى ذلك التحالف ضد الدعوة الإسلامية في بداية عهدها إلى الاعتقاد النفسي لدى المسلمين بالتلازم بين الكفر وبين الأحزاب، لأنّ القرآن الكريم أسهب في وصف التجمعات المعادية للدعوة «بالأحزاب» وذلك على النحو الآتي:

«١» قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾.

«٢» وقال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾.

«٣» وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

«٤» وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾.

«٥» وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ﴾.

«٦» وقال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ﴾.

«٧» وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ﴾.

«٨» قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾.

«٩» وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

«١٠» وقال تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

«١١» وقال تعالى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾.

«١٢» وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾.

«١٣» وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

«١٤» ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وما يجب إدراكه في هذا المقام أنه وإن كان القرآن قد ذكر كلمة «حزب» على سبيل الذم فقد ذكرها أيضاً على سبيل المدح، وذلك في الآيات الثلاث الآتية على سبيل المثال:

«١» قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ * وَرَسُولَهُۥ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ * فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

«٢» قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

«٣» قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾.

ومن كل ما تقدم نلحظ أن القرآن الكريم قد استخدم كلمة «حزب» استخداماً سلبيًّا، واستخداماً إيجابيًّا، ومن ثم فإن قصر هذا الاستخدام على الجانب السلبي فقط مع الاعتقاد في ذلك، هو استخدام غير علمي، وهو اعتقاد باطل أيضاً.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- موسوعة الحديث الشريف
- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- أحمد بن محمد بن هارون الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- د. اسماعيل إبراهيم: مشايخ ضد السلطة والسلطان
- جلال الدين محمد بن أحمد المحلي،
- جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تفسير الجلالين
- جلال الدين المعري: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- الحافظ بن عبد الغني بن عبد الوهاب المقدسي: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- د. حمد بن ناصر العمار: حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأركانه ومجالاته

- خالد محمد خالد
  ١- دفاع عن الديمقراطية
  ٢- رجال حول الرسول صلى الله عليه وسلم
- خالد بن عثمان الثبيت: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «أصوله وضوابطه وآدابه»
- د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثرهما في حفظ الأمة
- د. سعد بن عبدالله العريفي: الحسبة والسياسة الجنائية في المملكة العربية السعودية
- سلطان بن خالد بن حثيلين: الفقهاء والخلفاء
- علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي: الرتبة في طلب الحسبة
- محمد بن عبد القدوس الجهشياري: الوزراء والكُتّاب.
- محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث
- نيازي عز الدين: إنذار من السماء
- د. يوسف القرضاوي:
  ١- كيف نتعامل مع السنة النبوية؟
  ٢- السنة مصدراً للمعرفة والحضارة.

محتويات الكتاب

للمؤلّف أعمال أخرى تصدر قريباً:

* إصلاح الفكر الديني أولاً..

* لا للمعارضة.. نعم للسمع والطاعة..

* الإستبداد عند خير أُمة أُخرجت للناس..

* * *